لا أعرف اذا كان محشواً أم لا . لا أعرف اذا كان صالحاً للاستعمال أم لا . لا أعرف ما اذا كنت قادرة على استعماله أم لا ... وفي داخلي صوت غامض يأمرني بأن أطلق رصاصة على الصاروخ الذي لما ينفجر بعد ..

لا أدري كم من الوقت انقضى ونحن غارقان في صمت جنائزي طويل ..

رذاذ المطر استحال قصفاً ... عادت الريح تجلد المدينة بالمطر المتوحش .

قلت لأمين : تعال نستطلع .

فتحنا الباب وخرجنا الى مدخل الدرج ... سحب الدخان أشد كثافة مما كانت عليه ... قلت لأمين : هذا معناه أن النار بدأت تخمد ...

ابتلت اقدامنا ، وحين نظرنا الى موقعها جيداً ، وجدنا الماء يكاد يغطي الأرض متدفقاً من الأعلى وراكضاً على درجات السلم في شلال يضيع صوته مع صوت سيمفونية المطر والرصاص ... تراه المطر ، أم أن براميل الماء قد أنفجرت ؟ والنار تراها قد خمدت ؟ . ولكن ، لا سبيل الى التحقق من ذلك كله الآن ... اذن فالاحتمال في أن نموت عطشاً صار أكبر من احتمال موتنا حرقاً ! ماذا عن موتنا جوعاً ؟ ..

تذكرت القردة في قفصها . قلت لأمين : ألن تطعمها ؟

قال : تريدين أن أغامر بحياتي لاطعام قردة ؟

اقتنعت . كنت جائعة وخائفة بقدر كاف وأي منطق يساهم في حفظ الحياة كان يقنعني .. حياتي أنا أولاً ! ..

سألته : واذا استطعت مغادرة البيت ، ستحملها معك ، أم تتركها في قفصها ؟

أجابني بضيق : أحملها معي ؟ لن تتسع السيارة لها ولأشيائي ... حتى ولو جاءوني بثلاث شاحنات فانها لن تكفي لاستيعابها .

وأشار بيده الى كنوزه الكثيرة .

ولم أقتنع .

ظللت أقلب المسدس في يدي ... وأتأمله ... وأتساءل .. وأتساءل ... والدخان يحيط بي .. وأسعل .. وأسعل .. وقدرت أن النار انطفأت ما دام الدخان بهذه الكثافة ...

* * *

Akhawia.net

كابوس ١٦٤

لم أعد مضطرة لتحاشي الجلوس قرب أية نافذة زجاجية ، صحيح أن كل نافذة هي مشروع خنجر يغمد بجسدي في حال حدوث انفجار ، ولكن زجاج البيت بأكمله أضحى محطماً ..

أجلس ، في أبعد ركن من البيت عن الصاروخ الذي لم ينفجر .. وأكتب .. وأدون (نوطات) كوابيس بيروت التي أعيشها كل لحظة ... والتي وعيتها منذ شهور طويلة ، ونبهت اليها أكثر من مرة ..

على الخيط الفاصل بين الموت والحياة ، أتقلب ، وأكتب .. وأنزف كتابة .. يدي تؤلمني .. الجراح التي خلفتها مخالب الكلب فيها بعضها اندمل ، وبعضها في طريقه الى الالتهاب ، فاللحم حولها متورم ومحمر ... لكنني أكتب ..

أتابع الكتابة وأمين يرمقني بضيق .

ينصت الى الراديو . بطاريته شارفت على الانتهاء ، واذاعتنا الكريمة تبث موسيقى فالس امبراطوري والحرب تلتهم كل شيء .. بعدها ينبري أحد المذيعين ويتحدث عن نشاط بعض المسالمين والحياديين ، وعن خروجهم في مظاهرة سلمية واعتصامهم في احدى الحدائق على الطريقة الأميركية وشعاراتهم باللغات الانكليزية والفرنسية ...

وانفجرت أضحك . كم تبدو هـذه التجمعات ساذجة بل صبيانية أمام منطق الجوع والذعر والنار .. كم يبدون لي في هذه اللحظة أبرياء وسذجاً حتى الاغتراب عن الواقع ، وبالتالي فبراءتهم جريمة ! ..

انتهيت من الكتابة .

وعدت أقلب المسدس بين يدي ، وقد أسندت ظهري الى الحقيبة البرتقالية الصغيرة ..

* * *

كابوس ١٦٥

جاء أمين بزجاجة نبيذ معتقة أخرى من كنوزه ...

قلت له : لا أنصحك بشرب النبيذ ، ستعطش بعدها وستضطر الى شرب كميات كبيرة من الماء المقرف المليء بالكلس .

قال : هذا لا يهمني . سأكون ثملاً ولن الحظ الكلس .

Akhawia.net

قلت : تذكر ان مخزوننا من الماء لا يكفي لأكثر من ثلاثة أيام اذا شربنا كوبين في اليوم الواحد .

أجاب : لا يهم . سأشرب .

قلت وأنا أقلب المسدس في يدي : بل يهم . لن أسمح لك بأن تثمل وتشرب حصتي من الماء . وأحذرك بأنني لن أعطيك قطرة واحدة من نصيبي ، ولا تتوهم أن لك مثل حظ الانثيين من ماء الحصار ! .

وعدت أقلب المسدس بيدي بينما بدا عليه الغم . قال : ابعدي هذا المسدس .

وجدت يدي تزداد اطباقاً عليه . ربما للمرة الأولى أدركت كم أنا بحاجة اليه لأستمر في الغابة التي عرتها الحرب على حقيقتها بعد أن أحرقت الأقنعة عن الوجوه كلهـــا ...

قلت لأمين : تعال نضع بعض الأوعية ونجمع قليلاً من ماء المطر ... فقد نحتاج اليـــه ! . . .

أذهلني أنني كنت أفكر بكل شيء ، وأخطط لكل شيء .. ما عدا الانتحار ... أنا التي كنت أدور بسيارتي منذ أشهر في شوارع بيروت الخطرة — اثر مقتل حبيبي يوسف — ممنية النفس في أن يريحني قناص من عذابي لفقده ! والآن ، فوهة المسدس في يدي ، سأوجهها الى أي شيء .. ما عدا رأسي .

قال لي أمين : أرجوك ، تخلصي من هذا المسدس : أنا وأنت هدفنا واحد وهو السلام والاستقرار ..

قلت له : حينما يكون الوطن (مهاجراً) عن قيم العدالة الاجتماعية والانسانية ، كيف يمكن لأي مواطن فيه أن يكون (مستقراً) ؟

* * *

كابوس ١٦٦

يعاودني ذلك الاحساس الدافىء ، وأنا أمسك بسماعة الهاتف منذ حوالي ساعة آملة أن تدب الحياة فيها .. انني ما زلت أحيا .. أختطف الحياة اختطافاً من كل هذا الموت المحيق بي ... استنشق الأوكسيجين رغم سحب الدخان ... أستخلص لقمتي حتى من بين أصابع الأموات .. أسرق نومي من بين مخالب الكوابيس ...

Akhawia.net

ربما أمسكت بالسماعة أكثر من ساعة . لا (حرارة). لا خط . لم أسمع الرنين المألوف الذي صار أعذب الأصوات الي في هذه اللحظة .

فشلت محاولتي .

قررت أن أحاول ثانية فيما بعد ..

* *

كابوس ١٦٧

غروب آخر ...

وعما قريب يأتي ليل آخر مثقل بالكوابيس والصرخات ...

قلت لأمين : سأصعد الى الأعلى لأرى ما فعلته النار .

قال : « سأرافقك » وهو يلتهب فضولاً لمشاهدة مأساة في (غير) بيته ، بحيث يستطيع الاستمتاع بالدمار الذي ليس دماره ، كمتعة أي متفرج مسترخ في مقعده المخملي الدافىء في السينما وهو يرقب على الشاشة طياراً يحترق به مقعده في الجو مثلاً ، مستمتعاً بمشهد العنف الذي لا يخصه ، والموت الذي ليس موته هذه المرة ...

صعدنا الدرج ... كان مجرد الاقتراب من مدخل بيتي مغامرة ... فمن بقايا السقف تتدلى كتل من الحجارة والاسمنت المعلقة بخيوط حديدية كأنها ثريات جهنمية لديكور بيت مصاص دماء ...

ومن السقف تقطر المياه فوقنا .. مياه موحلة سوداء كأنها دموع الليل الآتي ...

لم يبق للبيت أبواب عند المدخل . كانت قد احترقت كلها . ولم يكن بوسعنا أن نمشي خطوة واحدة الى الداخل ، فقد كانت على الأرض أكوام من الحجارة والرماد . والدخان ما يزال يعس من تحتها وهي لا تزال حارة ... لم يبق في المكان أثاث ، حتى الجدران ، بدت حجارة القرميد عارية تماماً إلا منها ... وعرفت أن الأكوام على الأرض لا بد أنها مزيج من الأثاث المحترق والحجارة المتساقطة من السقف والجدران ...

أما الفجوة في الجدار ، فقد استطعت أن أرى من خلالها أن ما كان مقري الحربي قد تحول الى عدة أسياخ حديدية عارية الا من بقايا الاسمنت ، وتحولت مئات الكتب التي كانت تغطي الجدار الى تلك الأكوام السوداء على الأرض التي يتصاعد منها دخان شبه كثيف ، بينما تهطل فوقها قطرات من الماء المسود وتسيل من أمكنة مجهولة

Akhawia.net

المصدر ..

كانت الأكوام حارة جداً ، ومحاولة المشي فوقها مستحيلة .

مددت رأسي ، وبلمحة واحدة أدركت مصير مكتبتي .. فمن خلال الفجوة التي كانت باباً ، لم أر في الغرفة ما يدل على معالمها الأصلية . الأثاث اختفى ! والجدران ، انهار معظمها ! ولم يبق الا الأرض المغطاة بكوم هائلة من ذلك المزيج المروع الذي يخلفه الحريق ، وتلك الرائحة الخاصة لمزيج مسود من النار والماء ، في منزل لم يعد فيه غير الدخان الثقيل والهباب الرطب ... آه لماذا لا تميز النار بين اللوحة والجدار ، وبين أوراق المخطوطات وأوراق (الكلينكس) ؟ لماذا لا تملك الأسطوانة والكتاب واللوحة التي هي كائنات حية ، قدرة الدفاع عن ذاتها ضد النار ، أو الهرب على الأقل ؟. واذا شبت النار في متحف اللوفر مثلاً ولم يتدخل أحد ، يستهرب القطة ، وستقضي « الموناليزا » نحبها !! ...

لعلي استندت بيدي على الجدار .. كانت سوداء يغطيها هباب كثيف .

ووجدتني ألطخ وجهي بها في أسى عظيم ...

لم يعد هنالك مجال للشك . لقد احترقت مكتبتي ولوحاتي وموسيقاي ! ..

وتابعت تلطيخ وجهي بالهباب كبدائي في مأتم ...

* * *

كابوس ١٦٨

انه الليل ...

وأنا أدفع ثمن حماقتي ... وتحت المطر أقف في ظلام الحديقة وأغسل وجهي بالصابون لأنظفه من الهباب وأترك المطر يغسل كل شيء .

لم أكن أرغب في تقديم هذا المشهد الدراماتيكي لأشجار الحديقة وأعشابها ، لكن لا ماء لغير الشرب . .

أيقظ الماء البارد حواسي وأنعشها ، وعاودني ذلك الشعور بالفرحة الغامرة لأنني ما ما زلت حية . ولأنني أسرق حياتي لحظة بلحظة من كل هذا الموت المحيط بي ... أيقظ الماء البارد حواسي . وأنعش كل ما هو أنا وكل ما هو حقيقي في أعماقي . ووجدتني أقرر بصفاء في تلك اللحظة وفيما كان المطر يطهرني : اذا كانت النار التي أحرقت بيتي

Akhawia.net

هي مخاض الفرح الآتي ، اذا كانت النار التي أحرقت أوراقي هي مطهر الشعب اللبناني ، واذا كانت القنابل التي هدمت جدراني ، تفتح ولو نافذة واحدة في سجن البؤس المادي والروحي الذي نحياه ، فكل ما أملك أن أقوله هو : بوركت شفاه النار التي أكلت بيتي ، بورك الزلزال الذي هدمه اذا كان سيهدم في الوقت نفسه جدران اللاعدالة والانعزالية ، وبورك الزلزال الذي أحرق عشر سنوات من عمري ، اذا كان ذلك البركان نفسه ، قادراً على اخراج معذبي هذا الوطن من جوف الظلم الى ضياء الحرية والعدالة . وقررت : اذا نجوت ، سأبتاع أوراقاً بيضاء تعادل حجم مخطوطاتي التي احترقت وأبدأ الكتابة فيها حتى تمتلىء . وسأتابع فيها صرختي من أجل المساواة والعدالة والحرية والفرح ، ولن يخيفني حريق بيت فالبيوت حجارة والكرة الأرضية مسكن مؤقت نحن ضيوفه أينما حللنا ، وبيتي الوحيد الحقيقي الذي سكنته باستمرار هو جسدي . وما أزال أقطنه .

وبوركت شفاه النار التي أحرقت بيتي اذا كانت ستطهر هذا الوطن الحزين من أوجاعه . المهم أن أنجو . لأستمر ولأكتب .

وهرعت الى الهاتف من جديد لأحاول من جديد ، والغريب انني لم أكد أرفع السماعة حتى جاء (الخط) وبسرعة أدرت أرقام الصديقة آمال . وجاءني صوتها يقول : في السابعة صباحاً ستأتي مصفحة لاخراجك متى سمحت الأحوال العسكرية .

وصرخت : السابعة غداً ؟ وقبل أن تتدفق من فمي عشرات الاستفسارات ، وقبل أن أسأل وأستوضح كيف ولماذا ومن ، أصيب الهاتف بالسكتة القلبية .

وعبثاً حاولت معاودة الاتصال . كان الهاتف قد قضى نحبه تماماً ونهائياً . وبيني وبين موعد الغد ١٢ سنة ضوئية ، لا ١٢ ساعة فقط ، ولكن هل كانت تقصد الغد ؟ ماذا قالت بالضبط ؟ وشعرت بالكلمات تتفكك داخل ذاكرتي وتتناثر على الأرض مثل كيس من الكرات الزجاجية الملونة (الدحل) ضربها صبي مشاكس برجله ! يا لذاكرتي المشاكسة ! ..

* * *

كابوس ١٦٩

أغمض عيني ، وأستطيع أن أرى آثار الحريق على خدود الأبنية ... الخراب

Akhawia.net

المروع في أحياء وأسواق بأكملها ... المطر الذي يحاول عبثاً غسل الهباب عــن الجدران ..

أعمدة الكهرباء المكسورة وأشرطتها المدلاة في الريح كجثث أفاع منطفئة ... كل شيء في بيروت أسود ورمادي ، ما عدا أكوام القمامة الملونة التي احتلت الأرصفة تلالاً من الروائح المقززة ، وفوقها يركض ذباب هائل ، وكل ذبابة بحجم رجل ! ..

والحطام منتشر في كل مكان ... حطام الزجاج .. حطام الأبواب ... حطام البيوت .. حطام التذكارات .

أغمض عيني واستطيع أن أرى جرح بيروت الممتد على طول شوارعها ، المفتوح للريح والمطر .. والليل البارد ..

ويصرخ صوت في أعماقي :

ولكن بيروت لم تكن قبل الحرب جميلة بقدر ما كان الناس يتوهمون ...

كان قناعها جميلاً ، وقد أحرقت الحرب قناعها فبدت أمراضها الآن للعيان ... وكانت زينتها الخارجية ساحرة الألوان ، لكنها تخفي تحتها أوراماً خبيثة لا تداوى بغير الكي بعد أن استفحل أمرها ، وبحت أصوات العقلاء وهم ينادون عاماً بعد عام لانقاذها ..

وكانت ضحكات الثمالى تتفجر من خمسة بالمئة من شوارعها المضيئة المجنونة الايقاع ، في حين كانت دموع البؤس الغزيرة تروي نبتة النقمة في بقية شوارع الفقر غير المعبدة ، المفروشة بتربة الجوع والجهل والمرض والظلم والفقر .. تلك التربة — الديناميت التي يعي مدلولها كل من قرأ مبادىء التاريخ ..

أجــل !

ليس صحيحاً أن بيروت كانت تعيش عصرها الذهبي حتى جاءت (الحرب القذرة) وقصفت عمر شبابها السعيد ... فبيروت (الدولشي فيتا) اي الحياة اللذيذة ، كانت بيروت الاقلية التي تتزلج في الأرز شتاء وتسبح في الولائم صيفاً وشتاء ، لا بيروت الأكثرية التي تتزلج فوق صقيع أحزانها شتاء وتسبح في بحر من اللاعدالة وعدم تكافؤ الفرص والقهر الاجتماعي والانساني صيفاً وشتاء ...

واذا كان ما مر بنا (حرباً قذرة) فقد كان سلام بيروت ما قبل الحرب (سلاماً قذراً) ... كان سلام استمتاع أقلية جماعة (الدولشي فيتا) على حساب حرمان

Akhawia.net

الأكثرية ... لم يكن سلاماً بل كان استسلاماً موقتاً ، فالشعب يمهل ولا يهمل ...

وصحيح أن عشرات الألوف من الضحايا سقطوا في غمار هذه الحرب التعسة .. إلا أن الناس كانوا يموتون قبلها بالآلاف أيضاً : كانوا يموتون قهراً وكمداً وجوعاً وفقراً وبؤساً وغضباً وجهلاً ...

كانوا يموتون بصمت ... وسراً ... وكانت الشوارع تضم آلافاً من الأحياء الذين مات أو انكسر شيء في داخلهم وتحولت أجسادهم إلى مجرد توابيت متحركة تخفي موتهم السري ...

* * *

كابوس ١٧٠

أهذا رعد ، أم صراخ قلوبنا ؟ ..

انه الخريف . عاد إلى غاباته ليجدها محروقة . عاد إلى دروبه فوجدها مفروشة بالجثث . عاد إلى شطآنه فروت له الريح حكاية صيف بيروت الدامي ... انه الخريف ..

عاد إلى شعبه من الطيبين والبسطاء والعشاق ، فوجدهم ينزفون ... ربما لذلك قضى الليلة السابقة بطولها وهو يبكي ويبكي ويبكي .. وتوهم الناس دموعه مطراً ...

ما يهطل هذا العام ليس مطراً . انه دموع الفصول الأربعة !! ..

أحاول أن أتلهى عن صوت الرعد بالاستماع إلى المذياع .. انهم يبشروننا برفع بسطات الباعة الفقراء من « شارع الحمراء » ببيروت ، في محاولة يائسة لاعادة (الوجه السياحي) للشارع ، الذي يعتبر مقابلاً لما تمثله جادة الشانزيليزيه في باريس ، واكسفورد ستريت بلندن ، وفيافينيتو بروما .. ها هم اذن يلملمون صرخات الباعة المنكوبين عن الأرصفة ، ويتخلصون من هجمة الطبقة الشعبية على الشارع للتزود بكل ما يخطر بالبال من مأكل ومشرب وملبس .. والكراسي في مقاهي الأرصفة عادت تنتظر زبائنها من (ثوار المقاهي) ... ولكن ، هل يمكن لاي شيء ان يعود كما كان حقاً ؟

أبداً ... حتى طعم القهوة الحارة على الرصيف ذات صبيحة خريفية ماطرة لن يكون له طعم (الهال) بل طعم الجرح ...

اولئك الذين سكن بؤسهم أرصفة شارع الحمراء لن يغادر بؤسهم أرصفة ذاكرتنا ، ولا بؤس المحيطين ببيروت كالحزام ..

Akhawia.net

انك لا تستطيع ان تداوي الجرح بستره عن الأنظار ... انك لا تستطيع ان تخبىء الوجه الممزق الدامي لبيروت بقناع شارع الحمراء ..

لا أحد ضد اعادة شارع الحمراء شارعاً نظيفاً حضارياً ، لكن اعتبار هذه الخطوة كل شيء، يدل على جهل المسؤولين بكنه ما يدور ومدلوله .

ان نقل البؤس من المسرح إلى ما وراء الكواليس لا يلغيه .

ان اخفاء المريض تحت السرير لا يشفي مرضه .. ولا يخدره .. واذا خدره لفترة فانه سيستفيق وهو أكثر شراسة ... وسينقض على جلاده مدير المستشفى المصر على نظافة المه ِات وصالة الاستقبال فقط ! ..

انفجر الجرح صوته عاصفة رعدية محرقة .. تاريخ الشعوب يقول ذلك باستمرار ... ولكنهم لا يسمعون ولا يفقهون هنا .. وصار حتى الاستماع إلى اذاعتهم كابوساً لا يطاق ! .

* * *

كابوس ١٧١

تعب حفار القبور ، فشرب نصف بطحة عرق ، ونام . وخرج الموتى من قبورهم كما في كل ليلة ، يجلسون علي سور المقبرة ، ويتفرجون على ما يدور في بيروت عبر نيران الشوارع والحرائق . ويضحكون لحماقة أكثر الأحياء ..

ثم يذهبون إلى جيرانهم الجدد في القبور الحديثة ، فيخرجونهم ، ويسألونهم عن أحوالهم وحكاياهم ، ويتسامرون ، تماماً كما يفعل الأحياء حينما يسكن في الحي جار جديد ...

ذلك المساء ، صرخ أحدهم وهو يقترب من أحد القبور : هذا ليس منا ...

تجمعوا حول القبر .

وعرفوا فوراً بفضل حاستهم السابعة ان الرجل الذي يضمه هذا القبر هو « غريب » عنهــم .

صرخت جثة نصف متآكلة : انه حي ... انه ما يزال حياً لا يرزق ... اخرجوه من القبر .

قال هيكل عظمي : سنحاكمه ، واذا كان بريئاً حكمنا عليه « بنعمة الموت » ،

Akhawia.net

واذا كان مجرماً طردناه من ملكوتنا ، وعاقبناه بالسجن داخل ملكوت الأحياء : اي عاقبناه بالحياة ! ..

لكن الميت — الحي كان مثخناً بالجراح ، وفي غيبوبة كاملة .. وهكذا كان أمر محاكمته مستحيلاً ودفاعه عن نفسه مستحيلاً .. هكذا قرر أحد (وجهاء) المقبرة ...

ردت جمجمة فوضوي مات صغيراً : سنعدمه أولاً ثم نحاكمه كما كنا نفعل (هناك) ..

تدخل آخر : عالمنا ليس قذراً . لا نستطيع ان نقرر مصير انسان لا نعرف عنه شيئاً . لا يمكن محاكمته محاكمة عادلة اذا لم يكن صاحياً .. وما يدرينا فلربما كان مجرماً ، وهو بالتالي لا يستحق رحمة الموت والانضمام الينا ..

قال هيكل عظمي عار من اللحم تماماً : — اقترح إعادته إلى المدينة ما دام ليس منا ، هناك ، يعالجونه على طريقتهم ، أو يعيدونه الينا بعد أن يستكمل جميع شروط الانضمام إلى مدينتنا الهادئة .

وأخيراً ، تقرر طرح الأمر على التصويت ...

صاح هيكل عظمي مهيب الطول : من يوافق على إعادته إلى مدينة الجنون فليرفع جمجمته على اصبعه .. ومن لا يوافق ، فليترك جمجمته في مكانها .

وارتفعت جماجم كثيرة على الأصابع .. وتقررت إعادة « الغريب » إلى بيروت .. ووقفت الهياكل العظمية في صف طويل مهيب ، وحملوه في تابوت ، ولفوه بكفن ، وعلقوا على القبور أوراق نعوته وهو المأسوف على شبابه،الذي اختطفته يد الحياة إلى عذابها . ومشى موكب الأموات إلى بيروت مشيعين « الحي » في جنازة مهيبة ، مرددين من أجله أحر الصلوات والدعوات ...

وحين واروه مقره « غير الأخير » على باب أحد المستشفيات ، أهالوا الليل عليه وودعوه بالدموع الحارة ...

أما الحارس المناوب على باب المستشفى ، فقد قال حين وجد جريحاً مثخناً أمام الباب ، وبدأ حمله إلى مدخل غرفة الاسعاف حيث تكوّم عشرات الجرحى بانتظار إسعافهم : يا الهي .. كم هو ثقيل .. وسيموت طبعاً كالآخرين .. لماذا لا يحملونهم إلى المقبرة مباشرة ؟ ...

Akhawia.net

كابوس ١٧٢

استيقظت وأنا أصرخ : أين أخي ..

وشعرت بان شيئاً غير عادي قد حدث لي . كان السرير شبه فارغ لكنني كنت مكومة لصق الوسادة . كان جسدي قد صغر كثيراً وحين تحسسته وجدته مكسواً بالريش . حاولت الوقوف وكان الأمر سهلاً وحين حاولت المشي نحو المرآة لأرى ما حدث لي اكتشفت انني اقفز قفزاً ... كان قد نبت لي جناحان فطرت نحو المرآة ، وكدت اصطدم بها فقد فوجئت بانني تحولت إلى بومة صغيرة ...

اين أخي ؟ ..

وقررت أن اطير إليه في السجن .

أطير في الشوارع المفروشة بالجثث

أطير في الليل الحزين المزروع بالذعر والمتفجرات .

أنا من أثير والرصاص يعبرني ويخترقني دون ان يخترقني ! .

أطير بين غرف « المساجين » المعتمة أفتش عن أخي . أرى جيداً في الظلام .

ارى السجناء المحشورين في (القاووش) ، وكل زنزانة تضم عشرات منهم ومن الفئران والقاذورات . أغالب رغبتي بالتهام فأر واتابع بحثي عن أخي .

أجده في زنزانة ضيقة محشوراً مع سجين آخر ..

يتحدثان . التصق بالنافذة وانصت . يقول السجين لأخي : اتمنى ان ترى كيف أقاتل . اني ادعوك لترى كيف أقاتل يا شادي ..

يجيب أخي : لقد تلقيت دعوات كثيرة لمناسبات اجتماعية مختلفة اما دعوة للقتال ، فلم يحدث لي ذلك من قبل يا أبا ثائر .

يخلع ابو ثائر قميصه . أرى خارطة فلسطين موشومة على صدره . يراها أخي أيضاً . يسأل : ما هذا ؟ خارطة فلسطين .

— اجل . انا من نابلس . من جبل النار .

— ماذا تفعل هنا ؟ لم سجنوك ؟

— لا أذهب إلى أي بلد إلا واسجن . ذنبي الوحيد اني فلسطيني . لقد عرفت أكثر لسجون الأجنبية ، والعربية أيضاً . تعلمت الالمانية في سجني بميونيخ ، وتعلمت

Akhawia.net

الانكليزية في سجني بلندن . تعلمت الشطرنج أيضاً في السجن . اذا تركوك معي غداً في هذه الزنزانة سأعلمك الشطرنج . سنرسم على الأرض مربعاته ، وسنقتل بعض الصراصير لنجعل منها ملوكاً وجنوداً ورجال دين .. لعبة الشطرنج رائعة جداً .. ولكنني أفضل الحرب الحقيقية .

كان واضحاً ان أبا ثائر في حالة شوق إلى الحوار . كان يتحدث باستمرار دونما تنسيق : عندي خمسة اولاد . زوجتي هي ابنة عمي ولم ار ساقيها طوال عشر سنوات من زواجنا .. اعرف ملمسها في الظلام فقط .

اخي يقول : قرروا نقلي إلى السجن الانفرادي لانني ضربت احد السجناء هذا الصباح لسبب لم أعد أذكره . هذه أول مرة في حياتي اضرب فيها شخصاً ما . قرر السجان (الذي يتقاسم الحشيش والسجين المضروب) معاقبتي بسجني في الانفراد . لم يجدوا أماكن شاغرة فقرروا ان أقضي الليلة عندك .

قالوا انك ستضربني . وانك تضرب كل من يدخل إلى هذه الغرفة .

— هذا ليس صحيحاً . ان مجرد كوني « فلسطينياً » يجعلهم يلصقون بي أبشع الجرائم أو أعظم الفضائل ... انهم يؤلهونني ، او يحولونني إلى مجرم ... لا أحد يهمه ان يرى وجهي الحقيقي كبشر .. كإنسان متألم وغاضب ومشرد بلا وطن . يقاطعه أخي : لم أكن أدري ان السجن يحتوي هذه الفظاعات . كنت فعلاً أتوهم ان بلدنا بلد الاشعاع وادهش من رفاقي الذين يحملون السلاح ...

ابو ثائر لا يرد . انه يتابع حديثه كما لو كان مناجاة ذاتية وكذلك أخي . يتحدثان في وقت واحد . لا حوار بينهما وانما مجرد استئناس بالأصوات .

ابو ثائر : انني لا اقرأ ولا أكتب لكنني تعلمت اللغات في السجون الأوروبية كما تعلمت فيها لعبة الشطرنج أما في أغلب السجون العربية فقد كان الأمر مختلفاً . في سجن عربي علقوني بالسقف وضربوني طويلاً ، وفي يدي الآن كسور عديدة ، وفي ظهري سيخ من الحديد عوضاً عن عموذي الفقري المهشم .

شادي : لم أكن أدري اي بؤس يعيشه هذا الشعب إلا حين سمعت حكايا رفاقي السجناء في « القاووش » . الأمر مرعب حقاً ... كنت فيما مضى اشمئز من السلاح ، واليوم اشمئز ممن لا يفكر بحمل السلاح ..

Akhawia.net

ابو ثائر : ومرة ذهبنا في وفد وهبطت بنا طائرة الهيليكوبتر على سطح الأمم المتحدة وأحاط بنا رجال المخابرات الأميركية حرصاً على حياتنا (!) كما أحطنا نحن بأحد الرفاق حرصاً على حياته . ثم قلت لاحد الحراس : أريد ان تشتروا لنا شيئاً من الحشيش .

انتهرني أحد الرفاق ، وصرخت به : لماذا لا ؟ أليست هذه أكبر (محششة) في الدنيـــا .

— في القاووش التقيت بصحفي اسمه سامي . لقد سجنوه لمجرد انه يكتب دونما مواربة مطالباً بالعدالة لشعبه اللبناني البائس ! ..

— في معسكر الزرقاء للتدريب كانت الطائرات الاسرائيلية تغير علينا .. وكنت افجر القذائف برشاشي قبل وصولها إلى الأرض ... كنت أفجرها بالدوشكا .. وذات يوم فجرت أكثر من عشر قذائف والطائرة تحوم فوقي ، وفجأة سمعت طفلي يناديني من الخندق ودهشت : ما الذي جاء بطفلي إلى هنا ... وركضت إلى الخندق ، ولم أكد أصل حتى انفجرت بسيارتي قذيفة مزقتها والدوشكا ... ولم يكن ابني في الخندق ، لكنني نجوت ..

— ... حتى ولو خرجت من السجن فلن أنسى . لقد تبدلت نهائياً وإلى الأبد . كانوا يقولون : من فتح مدرسة أغلق سجناً . وأنا نادم لانهم كانوا يلهونني في المدرسة عن حقيقة ما يدور في هذا الوطن اللبناني البائس ، السجن هو مدرستي الحقيقية لا الجامعة ! .

— وعملية الحزام الأخضر .. انها لا تنسى .. الكمائن المتقدمة بشكل دائري ... والالتحام بيننا وبين الاسرائيليين .. كنت جريحاً وفي طور النقاهة لذا ارغمت على البقاء في برج المراقبة ... من هناك شاهدت الجميع يموتون ... الفلسطينيين والاسرائيليين .

بقي واحد من كل جانب .

ظلا لمدة ساعة يتراشقان . جرح الفلسطيني ، ونفدت ذخيرة الاسرائيلي . فالتحما معاً في قتال شرس وخنقه رفيقي بالرغم من جراحه ..

— نحن أبناء الطبقة المتوسطة لا نعرف اي هول تعاني منه الأكثرية الساحقة ... هنالك تعتيم اعلامي مروع على بؤس الشعب اللبناني .. وكل ذنب سامي هو انه اشار إلى ذلك .. لقد لفقوا له تهمة ورموا به في السجن .

— في المناطق المتقدمة في الأرض المحتلة . بالضبط في « الوادي اليابس » بالاغوار

Akhawia.net

عند « قناية المي » ، كان الاسرائيليون يحفرون الخنادق بشكل دائري ، ويضعون فيها آلات تسجيل مع رشاشات تعمل بالراديو على البطارية والكومبيوتر ، التسجيل يكرر عبارة : قف . وغيرها ... كانوا بحاجة إلى أجهزتهم الالكترونية (التي طنطنت لها أجهزة اعلامهم وبعض أجهزة الاعلام العربية) لخوفهم منا .. ولان جنودهم كانوا يفرون من هذه المواقع المتقدمة .. وكانت رشاشاتهم تطلق النار اتوماتيكياً وتلف بشكل آلي مسافة ١٨٠ درجة .

كنت مكلفاً بالرصد ، لاحظت ان ما يدور متقن إلى حد الخلل . ودقيق إلى حد الغباء . اكتشفت الخدعة وهاجمناهم ذات ليلة فدمرنا أجهزة التسجيل واستولينا على الرشاشات .. ثم ..

— ولن أغادر هذا الوطن الحزين .. كلانا معذب .. شقائي وشقاؤك واحد ... سجاني حليف مع عدوك ... اننا في خندق واحد ولا مفر من أن نقاتل معاً ...

— آه كم قاتلت .. كل ما في جسدي الآن معطل ومهترىء ما عدا عضواً واحداً .

— انه ليس رأسك طبعاً ! ..

ضحكـــا ...

فرحت حين شاهدت أخي يضحك .

صرخت به : شادي ...

صرخ أبو ثائر : انظر إلى هذه البومة .. انني اتفاءل بالبوم . انها أقل شؤماً من أكثر الزعماء العرب .. ربما كان قدومها نذيراً بتدمير السجن .

* * *

السجن يحترق ...

أخي يركض مع أبو ثائر هاربين في قافلة كبيرة من السجناء .. الرصاص يطلق عليهما لكنهما يركضان .. ابو ثائر يحمل خارطة فلسطين الموشومة على صدره ، وأخي لا يحمل في يديه شيئاً .. ترى ما هو موشوم الآن داخل صدره ؟ ..

يركض ويداه تلوحان في الريح مثل جناحين لطائر بدأ يكتشف الدرب إلى مرافىء الشمس .

* * *

Akhawia.net

اخي يحمل في يديه رشاشاً ... يقف في أحد م مكرات اتدريب ..
ابو ثائر واقف إلى جانبه ..
— اطلق . ما بلك . هل هي المرة الأولى حقاً ؟
— أجل . أنها المرة الأولى ، ولكنني صرت متيقناً من أنها الوسيلة الوحيدة .
يطلق الرصاص .
لا استطيع ان أحدق كثيراً . فالشمس ساطعة وانا بومة .

* * *

كابوس ١٧٣

ما زلت ممددة على الأرض وقد اسندت ظهري إلى الجدار وتوسدت الحقيبة البرتقالية ... والمسدس في يدي الملقاة على الأرض واصبعي على الزناد . شخير أمين يقطع الهدوء ، ضائعاً بين وقت وآخر وسط زعيق المتفجرات والقنابل ... (اتمنى لو اطلق الرصاص على صوته) ...

أما أنا ، فكنت أعرف سلفاً أنني لن أنام الليلة حقاً ولن أبقى صاحية حقاً وانما سأظل فريسة للكوابيس ؛ وسأظل انتظر اشروق الشمس ثم « شروق المصفحة » التي يفترض ان تأتي لانقاذي فقد تأتي غداً ...

ربما قالت آمال « غداً » ولم انتبه جيداً للعبارة . ربما لم تقلها باعتبار أنها مفهومة بدهياً . قالت في السابعة ؟ .. لماذا ليس في السادسة أو الخامسة مثلاً . في الخامسة يكون الظلام ما يزال مخيماً . من أية طريق ستأتي المصفحة ؟ من شارع الحوراني ام شارع المخفر أم من الشارع الرئيسي أمام « الهوليداي إن » ؟ هل سأستطيع الركض اليها تحت أمطار الرصاص دون ان أجرح ؟ واذا جرحت هل سينقلونني بالمصفحة ام سيتركونني على الأرض وينسحبون ؟ واذا نقلوني إلى المصفحة ، هل يطلقون علينا قذائف تعطلها ؟ هل تصيبنا ام لا ؟ تشتعل ام لا تشتعل ؟ نحترق في داخلها ام نتمكن من الهرب ؟ هل يأتون غداً أم بعد شهر ام بعد عام ؟ هل يأتون في الموعد المحدد تماماً ؟ هل انتظرهم في الخارج معرضة نفسي لمزيد من أخطار القنص ، ام انتظرهم في الداخل ويأتون ولا يجدونني بانتظارهم فيظنون انني عدلت عن الخروج خوفاً على كنوزي دون ان يدروا انني فقيرة ويمضون ؟ هل سيعرفون اين بيتي ام سيضيعونه وينتظرون قليلاً أمام بيت

Akhawia.net

آخر ثم يمضون ؟ هل سيسمحون لي بحمل حقيبتي البرتقالية ام يأمرونني برميها لان المصفحة لا تتسع لنا معاً ؟ هل سيكون بداخلها عشرات من المعذبين الهاربين من النار أمثالي ، وسنختنق في الزحام أم سأكون وحدي ؟ ما شكل المصفحة من الداخل ؟ من اين بابها ؟ هل تسلقها صعب بحيث أعجز عن ذلك اذا جرحت ؟ وهل ؟ وهل ؟ وهل ؟ ..

* * *

كابوس ١٧٤

آه ما أطول الليل ، حين تكون المسافة بين الموت والحياة ليلة انتظار .

آه ما أبطأ انزلاق رمل العتمة الأسود حين تتقلص رقعة الطموح فلا تغطي أكثر من نصف ليلة انتظار ...

آه ما أقسى وحشة الأعزل ، حين تصير مخالب النار وسيلة البقاء الوحيدة ...

وفوق ذلك كله ، علي أن استمع إلى شخير أمين ! ..

ولكن ، لماذا لا أنهض وأفعل شيئاً .. الحركة تقتل الاحساس بحركة الزمن البطيئة على الجسد .. لماذا لا أحمل جسدي واتحرك به ؟ .. ذلك سيحميني من البرد بأنواعه كلها : برد البرد . وبرد الوحشة وبرد انزلاق قوقعة الزمن البطيئة على لحمي ...

الجوع والبرد ، كأنهما كلابان لسلطعون واحد ، يعضني بهما في كل موضع من جسدي في آن واحد ...

من الخير لي ان أفعل شيئاً ما . ان انهض . ان احرك جسدي المثقل بأكداس الجوع والصقيع والعتمة .. ولكن ، إلى أين ؟

فكرت بالذهاب إلى مخلوقات دكان بائع الحيوانات الأليفة ...

من مكاني في العتمة ، اسمع أصوات صرخاتها ، واستطيع ان أرى سمكة كبيرة تشبه الثور انتهت تواً من التهام سمكة ملونة الزعانف كفراشة ... استطيع ان أرى القطط تنتظر موت قط جريح لتلتهمه ... الببغاء مغمى عليه .. الأرانب تقفز بجنون في أرجاء القفص الضيق وربما تضرب رؤوسها بحديده ...

لماذا لا أطلق سراحها ؟ ...

ذلك سيعرضها للموت رصاصاً وجوعاً في مدينة تحترق .. لا .. من الأفضل تركها حيث هي بأمان نسبي ، فقد يأتي من ينقذها في اللحظة الأخيرة .

Akhawia.net

ولكن ، لماذا لا أعترف بانني خائفة ؟ وأن السبب الوحيد الذي يمنعني من اطلاق سراحها هو خوفي من انقضاضها علي ؟ .. صحيح ان أكثرها قوة وبأساً قد غادر سجنه بعد أن افتتح وجبة الحرية بالتهام سجانه ، ولكن ، ما الذي أعرفه عن سلوك القطط والأرانب والطيور والسلاحف والفئران بعد تجويعها ؟ ألا يمكن أن يتحول القط الجائع إلى نمر ، والأرنب الجائع إلى فهد ، الطائر الجائع إلى رخ ، والسلحفاة إلى ديناصور ، والفأر إلى ثعلب ؟ .

ومغارة النواح والعذاب التي كانتها الدكان في الليالي الأولى ، ألا يمكن أن تكون استحالت إلى مغارة من الانياب والغضب بعد أن مستها يد الجوع السحرية ؟ ...

تخيلت نفسي افتح أقفاص السلاحف فتأكل أقدامي ثم افتح مزلاج أقفاص الأرانب فتلتهمني حتى صدري ثم افتح أقفاص القطط فتلتهمني حتى رقبتي ، ثم اخرج الفئران فتلتهم خدودي وتقفز داخل جمجمتي خارجة من اذني ثم افتح قفص الطيور فتنقر عيني وتمضي كلها .. وتخلفني للكلاب تقرض عظامي ..

وسرت في جسدي رعدة كأن ذلك حدث بالفعل ! آه ما أقسى خواطر الأرق حين تكون المسافة بين الحياة والموت ليلة انتظار.. !

ليتني أغفو قليلاً ولتأت الكوابيس .. اي شيء هو خير من هذا الانتظار الموجع ...

* * *

كابوس ١٧٥

عاد الموتى إلى المقبرة بعد أن أوصلوا الشاب الحي إلى المستشفى في جنازة مهيبة وبكوه وهم يوارونه ثرى الأحياء وأرصفتهم ..

الليل ما زال في أوله .. وكثير من السكان الجدد قد تدفقوا اليوم عليهم .. وهم لما يسمعوا حكاياهم بعد ...

قال كبيرهم : تعالوا نقرع أبواب بيوتهم ...

قرعوا أول قبر . خرج الجار الجديد واستقبلوه بالترحاب .

سألوه : من أنت ؟

قال : أنا موظف قضى عمره يخدم الناس .. قتلتني رصاصة قناص . أطلق علي الرصاص لمجرد انني أحيا ..

Akhawia.net

رددوا : هذا شيء جميل . جزاه الله خيراً .. اولئك القناصون يمنحون الناس السلام مجاناً .. ان عالمكم لم يخل بعد من صانعي الخير ..

قال الميت الجديد ، وكان هيكله العظمي ما يزال يحتفظ بلحمه الذي بدأ لونه يميل إلى زرقة رمادية : وأنا أيضاً كنت من صانعي الخير ... يوم جنت بيروت بموجة القتل (على الهوية) على الحواجز المسلحة . قتل اي انسان لمجرد انه ولد لأب مسلم أو لأب مسيحي . طلعت أنا بفكرة حواجز الزهور .. حيث يوقفك حاجز من الفتيات والفتيان يحملون الزهور ، وبدلاً من سؤالك عن دينك وقتلك وفقاً لقانون الصدفة ، فانهم كانوا يمنحونك زهرة لمجرد أنك حي ومواطن ... بل انهم كانوا يزرعون الزهور في فوهات بنادق المسلحين على أمل أن تتحول إلى شجرة من خير . لا إلى شجرة من نار .. ولكنني قتلت بشجرة من نار دونما ذنب .. كان يتوقع ان يرى من رفاقه الموتى شيئاً من التعاطف لحكايته ... كان ما يزال غريباً عنهم ، لم يكن قد تعلم بعد دساتيرهم . . ولكنه فوجىء بهم يشيحون عنه بوجوههم دونما أعجاب .. كرر سؤاله : بالله عليكم ما ذنبي ؟ ما جريمتي ؟

رد حكيمهم : جريمتك هي التعامي عن الواقع . هل كنت تصدق حقاً انك تستطيع مداواة الجرح بغرس وردة فيه ؟ ..

* * *

كابوس ١٧٦

استيقظت ماري انطوانيت على أصوات المتفجرات . بحثت عن صديقها اللبناني فلم تجده في الفراش إلى جانبها . يوقظها على طريقته (الخاصة) المدهشة .

تناديه « كوكي » ... « كوكي » ... وهي لا تعرف ما اذا كان اسمه كريكور أم كامل . وهي أيضاً لا تدري ما اذا كان لبنان ما يزال تحت حكم بلدها « فرنسا » أم لا . اولئك اللبنانيون غريبو الأطوار .

إلى ما قبل أيام ثلاثة كان يغمرها بنقوده وقبلاته وجسده المترهل قليلاً .. ثم اختفى فجأة .. ولم يكن الأمر ليضايقها لو انه كان قد اشترى لها بطاقة سفر قبل اختفائه .

أما الآن فسيكون عليها ان تشتري بطاقة من مدخراتها التي جمعتها من عشاقها اللبنانيين (دوطة) لزواجها من حبيبها وابن قريتها جان جاك ...

Akhawia.net

تناديه من جديد « كوكي » ... « كوكي » ... لا جواب ... تشتم بالفرنسية (ميرد)..
تنادي كلبها : كوكو ... كوكو ... الكلب أيضاً لا يجيب .
تقفز من فراشها ملسوعة ...
... « إلا الكلب » ... فليختف الجميع « إلا الكلب » .. فليمت الجميع « إلا الكلب » ..
تبحث عنه في الغرف كلها . في الحمام . المطبخ . الشرفات . تناديه بحرقة . لا جواب ... تدور وتكرر بهستيرية « إلا الكلب » ... « إلا الكلب » ...
لا ريب في انهم اولئك الهمج الذين يسكنون في بيوت التنك إلى جوارها ... هم الذين اختطفوه طمعاً في فدية او مكافأة ... لن تدفع قرشاً واحداً وستنقذ كلبها . ترتدي ثيابها بسرعة راكض إلى حرب مقدسة ، وتهبط نحو المخيم المجاور ...
المصعد معطل ... عليها اللعنة هذه المدينة ، ماذا دهاها فجأة ، كانت إلى ما قبل أيام قليلة جنة العاهرات الأوربيات ، فمن هو المجرم الذي يخرب لهن هذا المناخ الساحر ؟ ..
تركض على الدرج مرتاعة . ترى هل قتلوه ؟ هل طبخوه ؟ هل أكلوه كلبها الجميل المدلل الذي تفضل (رجولته) في الفراش على كل الرجال الشرقيين الذين تعرف؟ .
ولكن لا . لقد طمأنها كوكي إلى أنهم في لبنان لا يعرفون العنف ولا القسوة ولا الدم ولا القتل وانه لا أحد يموت في لبنان وان « عزرائيل » لا يتوقف أبداً في محطتها ...
ركضت ماري انطوانيت إلى المخيم شبه عارية . سألت أول شخص لقيته عن كلبها. لم يكن يفهم الفرنسية . (سوفاج) .
لقد كذب عليها كوكي حين قال لها انه ليس في لبنان شخص واحد لا يتحدث اللغة الفرنسية قبل العربية . ركضت إلى شخص آخر .
دخلت المخيم فجأة احدى الشاحنات . توقفت أمامها وكادت تدهسها ، ثم هبطت منها مجموعة من القتلى ... لا ... لم يهبطوا .. لقد حملوهم وكانت أجسادهم ممزقة وثيابهم ممزقة وأكثرهم عراة تظهر على أجسادهم آثار التعذيب ...
وقفت مذهولة ترقب المطر يغسل جراحهم المفتوحة التي لم تجف بعد ..
احست بخوف مروع .. كانت وجوه جميع الذين أحاطوا بالسيارة قاسية كالصخر ،

Akhawia.net

صلدة كالصخر ... وكان الصمت المتوتر سيداً . لم يصرخ أحد لم يبك أحد . سمعت (خرطشة) الأسلحة البـــاردة الحديدية الصوت شاهدت في العيـــون نظرة مليئة بالعنفوان حادة خرافية سوداء كلون الزيتون الاسطوري في ليلة مقدسة ، وزيته يكاد يضيء ..

أدركت للمرة الأولى ان لبنان ليس حقاً جنة للعاهرات الأوربيات فقط لا غير كما كان يؤكد لها « كوكي » ورفاقه ..

وانه تحت هذا الجبل الجميل المكسو بالارز هنالك بركان يغلي ويفور ..

وخرجت هاربة ... وهي تصرخ وتبكي .. ولم تجرؤ على السؤال عن كلبها ...

تقدمت منها امرأة فلسطينية فارعة الطول كسنديانة ، عتيقة الأحزان والصلابة كسنديانة ، وضمتها إلى صدرها ..

وفي لحظة فهمت ماري انطوانيت .. فالانثى تفهم الانثى ...

(اذن هذه المرأة تظنها صديقة لاحد اولئك القاتلين المقتولين . ربما صديقة لابنها ، وها هي تطير فوق احزانها ، وتطير عبر احزانها لتعزيها بمصرع الحبيب المشترك !)

شعرت بخجل عميق .. للمرة الأولى منذ أعوام – لم تعد تذكرها – تدفق إلى وجهها دم الخجل .

وحين أقلعت بها الطائرة إلى بلدها ذلك المساء ، لم تفكر بكلبها المفقود ولا بعشيقها المفقود ... فكرت بذراعي تلك المرأة القوية ، ودموعها المتحجرة ، والحنان الذي تدفق منها رغم جراحها ..

آه اولئك الذين يسكنون بيوت التنك ، والذين كان يتشدق كوكي برغبته في طردهم واقتلاع بيوتهم بالجرافة (لانها تشوه المنظر السياحي لبيروت) اولئك البشر ، أية عوالم من الحنان والصلابة تعشش في صدورهم النازفة ...

انها لا تفهمهم ، لا تفهم شيئاً مما يدور ، كل ما تفهمه بعد ان عاشت أشهراً في بيروت هو : انها فعلاً تجهل بيروت .. كاكثر أبنائها .

* * *

كابوس ١٧٧

عرق بارد يتصبب من جبين مارون .

Akhawia.net

يقود سيارته وهو يرتجف . يجد صعوبة في تثبيت قدمه على دواسة البنزين .
هنرييت تقول بصوت جهدت ان يبدو هادئاً : توقف ودعني اتولى القيادة عنك ...
قال لها دون ان يلتفت : لا ضرورة لذلك . أنا بخير .
صمتت . كانت تعرف انه يكذب . وكان يعرف انها تعرف انه يكذب ... كانت تفهمه جيداً . ذلك لا يضايقه . وبالرغم من انها زوجته ، فأنه ما يزال يحبها ...

الشوارع شبه خاوية ... اين ذهب الناس جميعاً ؟ كيف تزدحم الشوارع بهم فجأة ثم تخلو منهم فجأة ، كما لو تسربوا مع ماء المطر إلى المجارير ؟ . وهذا الصباح حين غادرا البيت إلى عملهما ، كان زحام السير شبه عادي ولم يكن هنالك ما ينبىء بان هذا السبت سيصير سبتاً وحشياً مرصوداً للموت .

سألها : كم الساعة .
لم يكن يهمه فعلاً أن يعرف الوقت . كان مرهقاً ومتوتراً وبحاجة إلى أن يقول اي شيء ، ويسمع اي صوت .

لم تجب . كان يعرف انها تعرف انه لا يريد حقاً ان يعرف كم الساعة ! . ما الفرق؟...سواء أكانت الخامسة فجراً أم الثالثة ظهراً..المهم ان يصلا حيين إلىبيتهما..

حين غادرا البيت إلى عملهما هذا الصباح ، كان زحام السير شبه عادي ، ولم يكن هنالك ما ينبىء بأن هذا السبت سيتحول إلى يوم تاريخي يحتفل به فرانكشتاين ودراكولا والمركيز دي ساد وهولاكو وجنكيز خان وتيمورلنك كل عام كمولد جديد لهم .

انه لم يشم رائحة الدم وهو في مكتبه بالمجلة (الثورية) التي يرئس تحريرها ... ولكنه أحس كهارب غير مريحة في مناخ المدينة ، وحين سمع بالنبأ يحمله زميل له ، لم يبد كما لو انه سمع شيئاً جديداً ، وانما كانت عباراته مجرد قوالب لغوية لمشاعره الغامضة بالضيق والقلق والتحفز الخائف ..

وقبل ان يهتف لهنرييت ، جاء صوتها : ستجيء اليه بتاكسي ليمضيا إلى البيت . في البلد اطلاق رصاص عشوائي وحواجز للقتل على (الهوية) ... والوضع سيء جداً ...

وها هما ما يزالان حيين بالرغم من أنها مرت بدرب الموت من الحازمية إلى مكتبه بشارع الشيخ بشاره الخوري ، وها هما الآن في دربهما إلى بيتهما عند مفرق نهر الموت ! ...

Akhawia.net

نهر الموت ....

يوم اشتريا بيتهما الجديد عند مفرق « نهر الموت » ، وابلغا الاصدقاء بعنوانهما الجديد ، ظن أكثرهم ان في الأمر نكتة سوداوية من تلك التي قد يحلو للمثقفين تبنيها ... بيت عند مفرق « نهر الموت » .. تماماً كما في الروايات البوليسية الرديئة ! ..

ولكن ما ذنبهما اذا كانا لا يتشاءمان ولا يتفاءلان ولا يتطيران ، وكان البيت جميلاً يطل على حقل من البرتقال وخلفه البحر ، وثمنه معقول ، واسم المكان الذي يقع فيه « مفرق نهر الموت » ؟ ..

وصلا إلى مفرق نهر الموت .

وعند المفرق لمحا مجموعة من المسلحين . فكر مارون بالعودة لكنه كان واثقاً من انهم سيطلقون عليه النار لمجرد انه هرب .

كان لا مفر من ان تحدث المواجهة بين تذكرة هويته ، وبين الحاجز (الروليت) ... وهو لا يعرف ما اذا كان سيربح ام سيخسر ولكنه يعرف ان الخسارة تعني الموت الفوري او البطيء ، والربح يعني البقاء حياً ، حتى اشعار آخر ..

هذه الروليت الطائفية اللعينة ... روليت القمار بالكازينو أكثر عدالة ، انه هناك يختار على الأقل رقمه بنفسه فيربح او يخسر ، أما الآن فلا دور له حتى في اختيار الرقم الذي يقامر به ..

لقد تم اختياره له سلفاً حتى قبل ولادته بتسعة أشهر ، والأمر كله يتوقف على اختيار والدته للرجل الذي ضاجعته ليلة حملت به ، مسلماً كان ام مسيحياً . والنتيجة ، يجدها مكتوبة في خانة المذهب بهويته وكانت النتيجة كما قرأها : « مسيحي » ، كأنه (رقم) في لعبة مقامرة ارغامية شارعية عشوائية ...

واذا تطابق هذا الرقم مع (الرقم) المكتوب في خانة المسلحين الذين تصادف وقوفهم الآن هناك سيربح . واذا لم يحدث التطابق ، سيربح رصاصة في رأسه ... لعبة ساذجة كلعب الأطفال في الأزقة .

لم يفكر بينتيه كما في أكثر الروايات التي قرأها . لم يفكر بمصير حبيبته هنرييت كما في قصص الحب كلها ... ولم ينزلق شريط حياته أمام عينيه كما في أفلام المغامرات .

استحال ذهنه إلى سبورة ممسوحة تطفو فوقها لمبات مجنونة تضيء وتنطفيء دون ان

Akhawia.net

تكتب كلمة محددة . وجسده تدفق فيه دم حار جداً .

توقف أمام الرجال ، واستطاع ان يرى ان ثياب أكثرهم ملطخة بالدم ... لم ينتظر حتى يقولوا له شيئاً . أخرج لهم تذكرة هويته ، وتناول من يد زوجته تذكرتها أيضاً ! ... قرأ المسلح بصوت عال دون ان ينظر في وجهيهما .

مارون . هنرييت . مع السلامة يا اصدقاء ...

كان من المفروض ان يطمئن ويمضي .

ولكنه ظل خائفاً . انه ليس (مارون) . وهي ليست (هنرييت) ، واذا اكتشفوا ذلك فان العقاب سيكون عظيماً ...

لا ... ليست بطاقات التذكرة مزورة ، كل ما في الأمر انها لا ترسم (الحقيقة) ... حقيقتهما من الداخل ..

ولكن ، ما له ولحقيقته من الباطن الآن ؟ ..

وهذا العرق اللعين الذي يتصبب من داخله كأنه يريد ان يغسل عن وجهه قناع الاسم ...

التفت إلى هنرييت . كعادتها كانت هادئة وصلبة كحجارة حلب ، مسقط رأسها ... وجفناها كانا منسدلين بطمأنينة كما المجدلية في الايقونات ..

اما هو فيعرف ان عينيه تفضحان اعماقه باستمرار ، كما لو كانتا نافذتين شفافتين مفتوحتين على دخيلة نفسه .

انه مارون .. لكنه ليس مارون الذي يتوهمون ...

مارون الظاهر في الهوية هو غير مارون الباطن ...

هذا ليس وقت الظاهر والباطن يا مارون ... لماذا ترتجف يدك هكذا وانت تتمسك بمفتاح (الكونتاكت) وتحاول ادارة محرك السيارة اللعين الذي انطفأ فجأة ؟ ... انه لم ينطفىء فجأة . انت تعرف أن قدمك اليسرى لم تتجاوب مع اليمنى التي داست الكابح لحظة توقفك ، ولم تضغط على دواسة الدبرياج ... فانطفأت السيارة ... كأن قدمك (اليسرى) تقوم بعمل احتجاج ... وتعلن العصيان ... قلبك أيضاً سبق له ان أعلن العصيان ، بالضبط في الجزء (المنحرف) منه ناحية (اليسار) ...

المسلح يلحظ ارتباكك ... ينظر داخل عينيك للمرة الأولى ... لقد انكشف أمرك

Akhawia.net

وأمر هنرييت وانتهى أمركما ...

والسبب عجزك .. عجزك عن ارتداء القناع فوق بؤبؤ عينيك وإخفاء لون الشعاع المنبثق منهما حاملاً حقيقتك الباطنية .. ربما كان ذلك سبب ولعك بالفلسفة والصوفية وحكاية الخارج والباطن ومحاولة خلق انسجام وتطابق بينهما ...

ولكن هذا ليس وقت الخارج والباطن يا مارون .. وها هي هنرييت ترفع نظراتها اليك في ما يشبه التوسل ... محرك السيارة يستجيب لنظراتها اكثر منك ويدور .. تتهيأ للمسير والخروج من الكابوس ... وحتّى قدمك (اليسرى) تستجيب ، وتتأهب للاقلاع بسيارتك . ما تكاد تفعل حتّى يصرخ بك المسلح : قف .

اذن قرأها . نظرة الخوف في عينيك قرأها . نظرة الكذب في عينيك قرأها . لا . ليس الخوف . من الطبيعي ان تكون خائفاً . انه لا يتوقع منك ان لا تكون كذلك . لكنه شعاع الكذب الذي فشلت طوال حياتك في اطفائه حينما يطل من عينيك ... انه يعرف انك خائف خوفين : خوف الموقف ، وخوف الكذب ... تماسك يا مارون .. هذا المسلح التافه الذي يعيش بغريزته ، ماذا يعرف عن الظاهر والباطن والخوف والخوفين ؟ ربما لا يعرف . ربما يعرف . ربما كان هذا النوع من الناس البهيميين مسلحين بغريزة غامضة هي نفسها غريزة الفأر أمام المصيدة ... تسأله بصوت راعش : ماذا تريد ؟ ...

هو نفسه لا يعرف ماذا يريد . انه يشعر بانك تكذب . هذا كل ما في الأمر ... انه واثق من انك تخفي شيئاً ....

من جديد يأخذ تذكرة هويتك وزوجتك . هذه المرة يحدق جيداً في الاسم . يحدق جيداً في الوجه . الاسم : مارون . والوجه وجهك . تقفز نظراته عن وجهك إلى صندوق السيارة ، وفي عينيه نظرة انتصار . الاحمق . ان ما تخفيه هو في صندوق صدرك لا في صندوق سيارتك . لقد بدأت تنتصر . يطلب منك ان تفتح صندوق السيارة . تتطوع هنرييت للنزول . انها تعرف أنك قد تكون عاجزاً عن الوقوف على قدميك .

تقول له : الصندوق مفتوح ...

يمضي اليه وفي عينيه نظرة انتصار . يعود بنظرة خيبة . يدقق من جديد في اسمك وفي وجهك وفي مذهبك : مارون . مسيحي .

يقول لك شبه معتذر : مع السلامة . ورفاقه مشغولون باطلاق النار على رجل تصادف

Akhawia.net

ان اسمه محمد .

ها انت الآن في البيت وقد نجوت .

تتمدد على أريكة .

تتمدد هنرييت على الأريكة المواجهة لك المشابهة تماماً لاريكتك ، وكمرآة ترى فيها صورتك : الباطن منها لا الخارج ...

بعد قليل تنهض هي .

تقرر انت ايضاً ان تنهض لاجراء تعديل أساسي في بيتك ، بالضبط في مكتبتك : هويتك الحقيقية ، هوية الباطن ...

فقد يداهم البيت المسلحون ...

في المكتبة ، تعملان بسرعة لتزوير الهوية الحقيقية ..

بعض الكتب العاطفية والشعرية والرومانسيات يتم ابرازها ... اي الكتب التي كنتما تفكران بالتخلص منها ، ثم قررتما عدم اهدائها لاية مكتبة لان ذلك يساهم في نشر تزييفها للحياة ، واحراقها بدلاً من ذلك ... لكن قلبكما لا يطاوعكما على اضرام النار في كتاب لمجرد انه كتاب ...

بعد نصف ساعة ، كان العمل قد تم على تزوير هويتكما الحقيقية ...

الكتب التي تحبانها تم اخفاؤها خلف الكتب التقليدية (الواجهة) ... في الباطن ترقد كتب ماركس وانجلز واعداد المجلة (الثورية) التي تشرف على اصدارها ...

وها هي هنرييت تقوم بوضع اللمسات الأخيرة (الانثوية) على عملية التزوير :

فتنقل صورة العذراء التي أصرت والدتك على تعليقها في غرفة نوم الأطفال لتتصدر مكاناً بارزاً عند مدخل البيت ! ...

تعود لتتمدد على الأريكة ...

تحلم بالمكتبات السرية التي خارجها جدار وباطنها كتب ، وحين تضغط على زر سري في الجدار ينفتح دائراً حول مفصل في المنتصف ، وتخرج اليك المكتبة ...

انها الحكاية نفسها دائماً ... الخارج والباطن ... على الأريكة المقابلة لك ، تتمدد هنرييت ، كصورتك في مرآة ! ...

* * *

Akhawia.net

كابوس ١٧٨

كانت الانفجارات لا تهدأ .

غمرها حس بالخديعة : ها هو يهرب ويخلفها وحيدة .

اطفأت الأنوار .

خافت ان يظنوا البيت فارغاً فعادت واشعلتها . انها تخاف من السارقين .

خافت ان يعرفوا ان في البيت شخصاً حياً فيصوبوا رشاشاتهم إلى نافذتها ويقتلوها فعادت واطفأت النور .

أفزعتها الظلمة ، وذكرتها به ، بملمس جسده الافريقي الخالي من الشعر ، الرشيق العضلات والممشوق ... جسده الافريقي الذي يتدفق منه سحر رجولي يختلف كثيراً عن أجساد الرجال الاسيويين الغزيري الشعر حتى على اكتافهم وظهورهم ... في الظلمة لا تملك إلا أن تتذكر ملمس جسده . رائحته . رقصة عضلاته فوق جسدها ، وقرع الطبول في اذنيها حينما تغمض عينيها وتحس بأنها في غابة من الرجال العراة الذين يرقصون برماحهم الصلبة الملونة وهم يقتربون منها ويلتصقون بهـا وتلتصق اصواتهم بمسامها كمطر الجمر .. لا .. انها تخاف الظلمة . تضيء النـور في الغرفة المجاورة .. هذا أفضل حل : هكذا سيعرفون ان في المنزل شخصاً لكنهم لن يعرفوا انه جالس في غرفة أخرى ، واذا صوبوا رصاصهم إلى الغرفة المضاءة فلن تقتل .

لقد جاء بثرائه وسحره وقال انه يحبها ، والتصق بها طوال عام ، لقد جاء وضحكا وعبثا ، وها هو يخلفها للدمار دون ان يكلف نفسه عناء السؤال عن مصيرها . واذا نجت فلا مانع عنده من انتظارها في فراشه . واذا قتلت فسيستمع إلى الخبر بأسف ، وسيسره ان يحاول رفاقه التخفيف عنه ! ! ... سيشترون له أجمل المومسات الأجنبيات .

هي كانت تحبه وتمنحه الكثير من ذاتها ، لكن ذنبها الأساسي لدى رفاقه هو انها ليست أجنبية ... اولئك العرب الأثرياء ما زالوا يشعرون بالنقص أمام العيون الزرق ويمتعهم شراؤها واذلالها واستهلاكها ... ما زالوا عاجزين عن تفهم معنى الحب الحقيقي المجاني غير المقطوع عن تربة الواقع والتاريخ والحياة المشتركة والمصير الواحد ...

ها هو قد هرب وخلفها وحيدة . شعرت بغربة حقيقية عنه وبان آخر خيط كان يشدها اليه قد قطعته رصاصة ...

قال لها : سأعود ...

Akhawia.net

سيعود ، لكنه لن يجدها ...

لن يجدها أحد بعد اليوم ...

صحيح انها أحبت عدداً لا بأس به من الرجال ، لكنها أحبت كل رجل باخلاص كما لو لم يكن على وجه الكرة الأرضية سواهما . مع كل رجل كانت هي حواء ، انثى الكرة الأرضية الأولى والوحيدة ، وكان هو آدم ... لا رجل سواه لها ...

احبتهم جميعاً بصدق ، واحداً بعد الآخر ... تألمت من أجلهم بصدق ، واحداً بعد الآخر ... أقسمت لهم بصدق أنها لن تحب أحداً آخر ، وكانت صادقة لحظة قسمها ... منحتهم جسدها بصدق ، ومجاناً واستمتعت باجسادهم بقدر ما استمتعوا بها واحداً بعد الآخر ، واقسمت لكل منهم انها لم تعرف لذة كالتي عرفتها معه ، ولم تكن تكذب ... كأن الحب يصقل في الجسد القدرة على الوصول إلى النشوة ... كأن كل حب ليس نقيضاً للآخر بل مكمل للآخر ... كأن رجالها كلهم ليسوا رجالاً مختلفين بل أعضاء متناثرة لـ « رجل » الوحيد الذي هو الحب والخير واللا نهاية ...

وها هم جميعاً قد رحلوا .. تتذكرهم واحداً بعد الآخر ... تحصيهم واحداً بعد الآخر ... تتخيل أنها قد افتتحت نادياً تسميه : « نادي عشاق ناديا » يأتي اليه جميع الرجال الذين أحبت وعرفت وضاجعت .. آه سيكون هنالك زحام ... ستوسّع النادي .. سيأتون في ثيابهم المعتادة : الارستقراطي والفلاح والسباح والضابط والصحفي ورئيس الجمهورية وسائق التاكسي والسكير والفيلسوف والشاعر والحداد وبوليس السير والتلميذ ورئيس الجامعة وقاطع التذاكر ...

ستقول لهم انه مهرجان لعشاقها لا كرنفال دولي تاريخي . ستطلب منهم خلع ثيابهم والدخول عراة إلى ناديها ... سيدخلون باجسادهم المشدودة او كروشهم المترهلة ، برجولتهم الفاضحة أو الخجول ، بعضلاتهم المتورمة الشهية أو عظامهم المنخورة ...

ستقف عارية وستخطب فيهم : ايها الرجال الذين يجمعهم شيء واحد ، لا علاقة له بالثأر او الفكر أو الدين او العشائرية أو العبقرية أو الصفقات التجارية .. ايها الرجال الذين يربطهم شيء واحد هو أنا . ... اين انتم الآن مني وأنا أموت وحيدة هكذا ببطء هكذا ؟ ... لقد كنتم كاذبين ، كل منكم على حدة حين اقسمتم أن شيئاً لن يفرقنا سوى

Akhawia.net

الموت وكان العرق يقطر من وجوهكم فوق جسدي ...

ها أنا لم أمت بعد ، وكل ما في جسدي متفجر وحار وحي ومهيأ لاحتضان حبكم وبذوركم وشهواتكم ، فاين انتم من وحدتي الآن في ليل الرصاص والمتفجرات ؟

وبما ان العواطف البشرية عابرة وهشة وكاذبة ، والجسد البشري مذبح لأكاذيب وجودية مهولة تحت قناع الحب ، لذا قررت اغتيالكم واغتيالي والحكم عليكم وعلي بالموت لاننا لا نستحق الحياة ما دمنا نعجز عن احتضان الحب ...

ثم تسحب من تحتها رشاشاً خبأته باتقان تحت جذعها الضخم كجذع شجرة ، وتطلق النار عليهم في موضع (رجولتهم) بالذات ، فيسقطون على الأرض ويحتضرون... لكنها لا تنتحر ...

تتسلق النافذة وقد غسلت عنها ذكراهم وجثثهم ، وتخرج إلى الليل الشتائي لتغتسل بالمطر ، ولتبحث عن رجل (حقيقي) تروي له مأساة انوثتها (الحقيقية) ، ويفهمها ... ويحبها ... ويضمها إلى دفئه ...

لتكرر الحكاية من جديد ... يعشقان ... يفترقان ... يبكيان .. ينسيان ..

وتتكرر الحكاية من جديد مع رجل جديد ! .. يا للجحيم اللامتناهي ! ...

* * *

كابوس ١٧٩

آه ما أطول الليل ، حين تكون المسافة بين الموت والحياة ليلة انتظار .. آه ما ابطأ انزلاق رمل العتمة الأسود حين تتحول كل ذرة رمل إلى كابوس ..

آه كوابيس كوابيس تجرني إلى شطآنها .. ولا أملك إلا الاستسلام لموجاتها العجيبة المروعـــة .

* * *

كابوس ١٨٠

لم يكن منصور يعتزم حقاً الاقدام على ما فعله ... لكن (القدر) تعمد ان يساعده على ارتكابه . ولم يعد بوسعه مقاومة الاغراء ...

لقد قضى عشر سنوات وهو يحلم كل ليلة بأنه يقدم على (ما فعله) .. لكنه لم يكن ينوي ارتكابه حقاً . وكانت أحلام اليقظة كافية لتنفس بعضاً من مرارته .

Akhawia.net

لـــو ...

لو لم يحتضر عابر السبيل صدفة بين يديه ... لو لم يكن خارجاً من البنك كعادته ذلك الظهر ، ويحاصره القناص في الزقاق ، فيصرع عابر السبيل الذي كان يمشي بالصدفة أمامه ...

سقط فوقه ... ليس بالضبط فوقه بل أمام قدميه ، فتعثّر به وسقطا ... كانت الرصاصة قد استقرت في رأس الغريب تماماً . لم يصرخ . لم يتوجع . لم يغمض حتّى عينيه . لا يذكر بالضبط ما اذا كان ينوي اسعافه حين احتضنه ، أم ينوي الاحتماء بجسده كدرع من رصاص القناص ... لا يدري ما اذا كان حقاً يحاول فك ازرار سترة الغريب لمساعدته على التنفس – فقد يكون مغمى عليه فقط لا مقتولاً – أم تعمد ان يبحث عن (تذكرة هويته) ...

لا يدري بالضبط ، ولا يريد ان يدري ... كل ما يدريه انه قضى عشرة أعوام يحلم بان يحمل (تذكرة هوية) رجل سواه وشجاعة رجل سواه ليقوم بما ارتكبه اليوم ...

عشرة أعوام والحلم نفسه يراوده .. منذ عمل موظفاً في البنك والحلم نفسه يراوده...

في البداية كانت عملية عد النقود تسبب له ألماً خفياً ...

فقد كان فقيراً معدماً ... ومرض أمه الخبيث بحاجة إلى نفقات مروعة لتسكين آلامها فقط ... وكانت نقوده تذهب إلى جيب الطبيب وكان يحب ذلك الطبيب ويشكره بصدق بينما هو يودع بين يديه في نهاية كل شهر راتبه المتواضع بأكمله ...

كان محروماً من النساء لان النساء – عشيقات كن ام زوجات – يتطلبن النقود أولاً ثم الرجل ...

وكان محروماً من متابعة الدراسة لان الاساتذة يتطلبون (الاقساط) أولاً ثم العلم ...

كان محروماً من الضحك والفرح والرفاق والمعطف الدافىء شتاء والقميص الناعم صيفاً ، وعليه ان يرتدي الثياب نفسها صيفاً وشتاء ريثما تبلى على جسده الواهن ...

ولكنه كان لا ينسى شكر الطبيب كلما دفع له راتبه بأكمله آخر كل شهر ...

حتى جاء يوم ...

كان واقفاً في موضعه بالغرفة الزجاجية خلف الصندوق ، يحصي النقود حينما فوجىء برزمة ضخمة جداً من الأوراق الزرقاء توضع أمامه ..

Akhawia.net

رفع رأسه فوجد نفسه أمام الطبيب . حياه بحكم العادة . قال الكلمات التقليدية : أهلاً يا بيك . أمرك يا بيك . أمرك (يا حكيم) ...

(الحكيم) يريد ان يودع مئة الف ليرة في حسابه ... مئة ألف ورقة زرقاء جاء بها في خمس رزم ضخمة ...

بدأ يحصي النقود ، ويقلبها ورقة ورقة بسرعته التي اشتهر بها ... وفي أصابعه ذلك الألم الغامض كلما عد مبلغاً كبيراً ليس له هو ، وانما هي نقود ستعبر يده مجرد عبور كأنما لتدغدغ أحلامه وتنكأ جراح خيباته كلها ...

وفجأة شاهده ...

شاهد توقيعه هو على أربع ورقات تشكل ثلثي راتبه الشهري ... لقد اعتاد أن يوقع على الأوراق النقدية التي يقبضها ، كأنه يريد ان يطيل من امتلاكه لها أطول وقت ممكن ، كأنه يدمغها كما تدمغ المواشي ، وحتى إذا ذهبت لسواه فستظل بطريقة ما ملكاً له وتحمل توقيعه ...

أجل انه توقيعه . وانها أوراقه النقدية ، التي لو لم يبتلعها الطبيب لاستطاع ان يشتري بها معطفاً لهذا الشتاء البارد ولقمة لحم يشتهيها أكثر من مرة في الأسبوع ، وكتاباً يراه كل صباح في واجهة المكتبة المجاورة ، وربما زوجة تدفىء صقيع لياليه المغمسة بأنين أمه العجوز ...

ذلك اليوم تحول الألم في أصابعه إلى حقد شرس ... تسارع احضناؤه لنقود الطبيب .. صارت أصابعه مثل ماكينة تسارعت فجأة حتى الانفجار ...

منذ ذلك اليوم صار يحس بألم شرس في أصابعه كلما جاء شخص حاملاً رزمة هائلة من النقود ليودعها في حسابه ... كان يفكر بما يمكن لهذه النقود ان تصنعه له ولآلاف البائسين مثله ...

ولكن الحلم المجنون بدأ يوم (رفعوه) مكافأة له على (أمانته) فنقلوه ليصير مسؤولاً عن الخزائن الحديدية . صارت مهمته تنحصر في استقبال الزبائن . وفتح الأقفال لهم ومرافقتهم في سراديب البنك للوصول إلى الغرفة المصفحة . في الغرفة المصفحة عشرات الصناديق الحديدية التي لا تحتاج معالجة إقفالها إلى أكثر من خمس دقائق ، لكنها كلها موجودة ضمن غرفة مصفحة هي بمثابة خزانة حديدية عملاقة واحدة ...

Akhawia.net

كان عليه ان يرافقهم . ان يمشي خلفهم بكل احترام لان مستأجري الصناديق الحديدية (لايداع المجوهرات وأوراق الصفقات الكبيرة) هم طبعاً من الأثرياء جداً ... اي من الحكام الفعليين لهذا البلد البائس .. كان عليه ان يفتح الباب المصفح ثم ينحني قليلاً ليدخل (العميل) . هو يحمل مفتاحاً والعميل يحمل مفتاحه والصندوق لا يفتح إلا بالمفتاحين والعملية بأكملها هزلية ورمزية لكن الطقوس هي الطقوس في أماكن العبادة وفي البنوك . عليه ان يفتح الخزانة ثم يسحب الدرج المسجى في قعرها والمغطى جيداً بشكل علبة حرصاً على أسرار المودع . يضعها على رف خاص . يقدم للزبون كرسياً موضوعة أمام الرف زيادة في التكريم (وربما لان أكثر مالكي الصناديق هم من العجائز نساء أو رجالا) ثم يظل واقفاً مديراً ظهره في حركة مسرحية تعبر عن (غض الطرف) حرصاً على أسرار العميل . وباستطاعة الزبون ان يضع في صندوقه ما يشاء ... مجوهرات أو قطعة ذهب أو علبة صابون مبروش أو ... قنبلة موقوتة !

بعد ذلك تتم إعادة الصندوق إلى مكانه . يقفل بالمفتاحين . يخرجان من الغرفة المصفحة . يحكم إقفالها . يخرجان من السراديب . يحكم إقفال المدخل . يودع (العميل) حتى باب البنك ...وهكذا ..

لا بد له من الاعتراف بانه كان يسترق النظر إلى ما يتم ايداعه في الصناديق ... وكانت المجوهرات تخطف بصره حتى ليخيل اليه (لضخامتها) انها من زجاج ...

حتى جاء الطبيب ...

هذه المرة لم يسترق النظر ، بل انه حدق دونما مبالاة بضيق الطبيب .. حدق جيداً فشاهد الحلي المعتقة الفاخرة تلتمع في ضوء النيون وقال له الطبيب بفخر سري مغلف بنبرة شكوى : انها مجوهرات الوالدة ... التي توفاها الله منذ أسبوع ...

فرد عليه بلهجة آلية : عليها رحمات الله ... صبرك الله على مصابك ..

مصابه ؟ ..

وماذا عن نواح أمه هو في ليالي (آخر الشهر) حين ينتهي راتبه تماماً ويعجز عن شراء الدواء المخدر والمسكن لاوجاعها ؟ ..

تلك الليلة جاءه الحلم ...

حلم بانه يرتدي ثياباً فاخرة ويستأجر صندوقاً في البنك . بالضبط ، الصندوق المجاور

Akhawia.net

لصندوق الطبيب . يضع فيه قنبلة ويخرج . يرافقه الموظف باحترام وينحني له متوهماً انه ثري اودع ثروة من المجوهرات . ما يكاد يغادر البنك حتى تنفجر القنبلة وتفسد كل ما حولها من مجوهرات واوراق (هامة) وسندات ... وتحرق كل ما حولها من (عهر) ثري .. وهو يجلس على الرصيف بحذائه المثقوب وثيابه الرثة الممزقة المزقة ويضحك ويضحك حتى يصاب بنشوة (جسدية) ثم يصحو مستمتعاً .

حتى مات ذلك الغريب بين ذراعيه ...

حتى سقطت (تذكرته) بين أصابعه ... وصار تحقيق الحلم ممكناً عملياً .

كانت هذه أول مرة يخون فيها المنظمة التي انضم اليها ... لا يخون بالضبط ، وانما يستعمل بعض الأسلحة الموضوعة بين يديه لغرض (شخصي) ...

لنقل (يختلسها) . لا . لم يختلسها . كل ما في الأمر هو أن الحلم كان أكثر كثافة من أن يشرحه لهم ، واعمق صدقاً من ان يعتذر عنه .

ذهب إلى بنك آخر . كان يتمنى ان يحقق الحلم بحرفيته ، لكن (للواقع) أحكامه . أعطاهم تذكرة الرجل القتيل متنحلاً صفته . كان من أسرة بيروتية عريقة فاستقبله الموظف باحترام (تماماً كما كان يفعل هو مع زبائنه) .. وقع الأوراق اللازمة . دفع رسم الايجار السنوي اللازم . هبط إلى القبور ... السراديب .. الغرفة المصفحة .. فتح الصندوق وطلب من الموظف بلهجة طيبة ومباشرة — لا يستعملها الأثرياء حقاً — ان يدير وجهه حقاً ! ..

وفي الصندوق ، خلف القنبلة ، وخيل اليه ان ضربات ساعتها الموقوتة تنافس ضربات قلبه ... وغادر البنك .. وجلس على الرصيف ... صحيح انه لم يسمع صوت الانفجار عالياً بقدر ما كان يسمعه في الحلم ، لكنه ضحك طويلاً طويلاً وعليه أن يغسل الليلة ثيابه الداخلية ...

* * *

كابوس ١٨١

حدث الأمر دونما تخطيط ... وصار بطلاً ... كان يبحث تلك الليلة عن امرأة يشتريها آخر الليل ... يعري جسدها في الظلام ويناديها باسم ابنة (القرية) التي كان يحب . ويدفع ثمنها قرشا ويمتلكها . ويتخيل أنه يمتلك تلك الرائعة في قريته التي كان

Akhawia.net

يشتهي ، وبما انه (مقاتل محترف) فانه سيردد على طريقة نابليون « جميع نساء العالم متشابهات في الظلمة » ، وسيغير على جسدهـــا كما لو كانت كل النساء اللواتي تمنى لو امتلك وفشل ، وسيمتلكها وسينجح ...

تلك الليلة خرج إلى الليل بحثاً عن امرأة ...

حمل عدة (الجهاد) بحثاً عن امرأة .. وعدة الجهاد هذه الأيام أسلحة .. أو جرح ...

اسلحة من الأنواع كلها : خنجر ، عصا ، رشاش ، مسدس ، (وعيون شرسة بالطبع مع شارب وقح) ، أو جرح : أي ضمادة فوق جرح وهمي .يعلن عنه بربطه بشاش أبيض شاسع على طول الأفق ...

تلك الليلة ، خرج بعد ان ضمد ذراعه غير المجروحة وساقه السليمة وحمل (العدة) : قنبلة اينيرجا — رشاش يسميه أميرة ... خنجر غير حاد ولا مسموم يحلو له ان يؤكد للنساء انه مسموم حين يطلعهن عليه... ويبدو في عيونهن الانبهار والاعجاب كما في عيون كليوباترة حين ضمت اليها أفعاها ...

لكنه الآن جريح حقاً وبطل باطلاً .. الذين جرحوا معه كانوا أبطالاً حقاً ، أما هو فيعرف انه مندس بين صفوفهم يرتزق من ثورتهم لكن ذلك هو سره وحده .

المرأة التي اشتهى مؤخراً تقطن حياً غير (آمن) ... ومحاولته التصفير (بدلاً من عزف القيثارة) تحت شرفتها كانت نتيجتها إصابة طفيفة ، حولها ذعره إلى إغماء ، فنزيف فاصابة خطرة ...

والمهم انه الآن بطل ، فقد نقله بعض المقاتلين الفعليين في تلك المنطقة إلى المستشفى ، والسرير ، والرعاية الطبية ، والزائرات ،.والصحفيات والأضواء ولمبات الفلاش ...

وعلى ذراعه ضماد ، وعلى ساقه ضماد ، وحول السرير نساء جميلات كلهن من خريجات الجامعات . ذلك الصباح ، قال له الطبيب : شفيت .

أية كارثة . ان يرفع عن يده الضماد . أن يسير دون عرج وبالتالي دون نظرات إعجاب وحنان — أن يتحرك دونما شهقات لهفة !

قال له الطبيب : تستطيع أن تغادر المستشفى . لكنه لا يستطيع حقاً .

لا يريد ان يفقد ذلك كله ..

Akhawia.net

ارغموه على الرحيل ، رغم (عطف) رئيسة الممرضات عليه، ارغموه على الرحيل ومنحوا سريره لجريح ينزف حقاً ...

ها هو في بيته وحيد ...

لقد اشترى مئات الامتار من الضمادات ... وعشرات الامتار من البلاستيك اللاصق .. لا .. لن يفقد جرحه حتى ولو اندمل .. لن يفقد إعجاب الفتيات بأوجاعه حتى لو شفيت ...

أمام المرآة وقف يضمد جرحه الملتئم كغانية تلصق أهدابها الاصطناعية ، ويجرب مشية الأعرج كراقصة تراجع بروفة رقصة (السّتربتيز) القادمة ..

وخرج .. إلى الشارع .. فالبار .. وبدأ يعرج ..

عكازه عصا طرفاها من رصاص الرشاشات ...

انه يعرج والنظرات تلاحقه ... يتأوه من أوجاع موهومة في ذراعه والنساء يتأملنه ... الضماد هو « موضة » الحرب الأهلية للرجال ، كما كانت الموضة شارب فالنتينو وبنطال البيتلز الضيق منذ أعوام ...

وهكـــذا ...

يوماً بعد يوم يضمد ذراعه المعافاة ... ويجبر الكسور الموهومة لساقه .. ويمتلك النساء المعجبات (بعاهته) الثورية الكاذبة ...

حتى كان ذات فجر ... صحا ، وذراعه تؤلمه حقاً ... « حقاً » اي .. « فعلاً » اي «دونما زيف»...لم يكن الألم مكياجاً مسرحياً وانما ألم حقيقي كالذي قرأ عنه في القصص ...

قال له الطبيب : انها الغرغرينا في ذراعك . انه تأثير (البلاستر) طوال اشهر والجوع إلى الشمس . انا مضطر لقطع يدك ...

هذه المرة ، تأوه بصدق ، عرج بصدق ، عوى بصدق ، وهذه المرة تحاشته النساء لان الصدق الصادق يروع هذا النوع منهن الذي يفضل الأقنعة ...

* * *

كابوس ١٨٢

استيقظت خاتون العرافة مذعورة .

كان هنالك من يهز سريرها بعنف حتى لتكاد تسقط عنه . تراه أحد الجان الذين

Akhawia.net

تنطق باسمهم ولا تؤمن شخصياً بوجودهم ؟ام انه زلزال ؟ ام قذيفة في البناء المجاور ؟ ..

سمعت انفجارات متلاحقة هائلة الدوي . خيل اليها انها تنبعث من الغرفة التي تمارس فيها سحرها ...

ركضت اليها . فوجئت بمشهد لا يصدق ... كرتها الزجاجية كانت تضيء وتنطفيء وبداخلها انفجارات متلاحقة حمراء زرقاء خضراء رمادية .. كان الدوي هائلاً ، والكرة بأكملها ترتجف فوق منضدتها ... حاولت الهرب ، لكن كهارب غامضة كانت تنبعث من الكرة ، وتسمر نظراتها عليها كمغناطيس خارج من عمق الأساطير .. بدلاً من الهرب ، وجدت نفسها تقترب من الكرة الزجاجية وتحدق ...

شاهدت أرض الجبال المكللة بالأرز والثلج والشواطىء الزرق والذهبية القريبة ما تزال تلتهب ... لكن النار تمتد إلى أمكنة أخرى ... الشرخ يكبر ويرتسم فوق أصقاع جديدة .. والزلزال يجتاح الكرة بأكملها . ازدادت اقتراباً من الكرة وتحديقاً فيها رغم الشرر الذي بدأ يتطاير منها حارقاً أطراف وجهها وشعرها ... ظلت تحدق محاولة تحديد المكان الذي بدأ الزلزال انتقاله اليه ... والشرخ ، إلى أي بلد شقيق انتقل بالضبط..

شاهدت ذلك بوضوح ، وقبل ان تفتح فمها لتصرخ ناطقة اسم المكان ، ازداد الزلزال والشرر المتطاير واندلعت النار بها وتدحرجت الكرة الزجاجية مثقلة بما فيها من غليان مروع ثم انفجرت دفعة واحدة ...

في الصباح ، وجدوا خاتون البصارة مقتولة داخل غرفة السحر وقد انفجر في الغرفة شيء ما أحرقها وحطم كرتها .. قال الشبان إن شخصاً ما قد ترك لها قنبلة موقوتة في الغرفة لسبب مجهول ... اكدت العجائز أن أحد الجان (الاسياد) غضب عليها وأحرقها لانها كشفت من الأسرار أكثر مما سمحوا به لها ...

شيء واحد مؤكد ... وهو ان قذيفة لم تدخل إلى الغرفة من الخارج فقد كانت الجدران والنوافذ ما تزال موصدة ! ...

* * *

كابوس ١٨٣

آه كوابيس .. كوابيس ...

آه ما أطول الليل ، حين تكون المسافة بين الموت والحياة ليلة انتظار ...

Akhawia.net

آه ما أبطأ انزلاق رمل العتمة الأسود حين تتحول كل ذرة رمل الى كابوس .

آه بيروت ، كيف صدقت انك تستطيعين الاختيال بفستان العرس في مخيمات البؤس التي كانت تحيط بك ، وفي خيام أعمامك وأخوالك الذين يمزقهم التشرد والفقــــر ...

كيف صدقت أنك تستطيعين التزين أمام مرآة البحر المتوسط ، كما لو أنك ولدت من صدفة قذفت بها الأمواج ، متجاهلة أسرتك الكبيرة المحيطة بك الغاضبة لكرامتها وكرامتك ؟ ..

آه بيروت ، أيتها الغانية الجميلة ، كيف صدقت انك تستطيعين أن تتابعي دورك في الكباريه ، بينما أفراد أسرتك بأكلهم يتابعون دورهم المحتوم في الحرب والصراع الشريف لأجل بقاء شريف ؟ وها أنت اليوم تزفين الى عرس النار في أتون قوامــه البشر ... والكتب ... والبيوت .. والكتب ... والشوارع ... والكتب ... والأمواج .. والكتب .. والطيور ... والكتب والكتب والكتب ...

آه مكتبتي ! ...

لا أستطيع أن أصدق أنني لو تسلقت الآن درجات السلم الى بيتي ، لما وجدت باباً لمكتبتي ، ولو مددت يدي الى أحد الرفوف لأتناول أحد كتبي التي أعرف موضعها جيداً ، لما خرجت يدي بغير الهباب والماء الأسود ..

غمرتني من جديد غصة عميقة .

لقد حدث ما أخشاه . لقد احترقت كتبي . شعرت بالدموع تنحدر على وجهي وفكرت . لا ريب في أن دموعي الآن سوداء ، كلون الماء الذي يقطر الآن فوق بقايا الأوراق المحترقة ... بكيت قليلاً ... بكيت كثيراً ..

لا أدري .

لكنني أحسست بذلك المحرك الغامض في داخلي يعمل ، بعد أن يتوقف كل شيء عن العمل ... أحسست بذلك الصوت الشفاف الفرح في أعماقي ينطلق ، كما قد تنطلق صفارة غواصة في « الساعة الخامسة والعشرون » ... وكان يقول : أيتها الحمقاء ، لماذا تبكين ؟ كل ثلاث دقائق يصدر كتاب جديد في العالم ، ماذا تندبين ؟ ...

وتذكرت ان ذلك صحيح . وان امتلاك مكتبة ، يعني امتلاك برقع يحدد انطلاقة

Akhawia.net

العيون عند الأفق ... ها أنا من جديد لا أمتلك كتاباً واحداً من كتبي الألف ... ذلك يعني أن علي أن أقرأ ألف كتاب جديد ...

عاد الصوت يردد ، تذكري أنه كل ثلاث دقائق يصدر كتاب جديد في العالم ...

ووجدتني أهمس : هذا صحيح . ولكنها مكتبتي . وصحيح أن عدد سكان العالم ثلاثة بلايين ، وان يوسف هو واحد من ثلاثة بليون انسان ، لكنه أيضاً كان ... حبيبي ...

وتذكرت يوسف ... كل ذلك السحر المتدفق من لقائنا في الغابات والشواطىء .. تلك الشرنقة من الحس بالسلام والأمان تلفنا حين يضم كل منا صاحبه الى صدره ، وحين يخلع كل منا قوقعته للقاء رفيقه عارياً من أسلحته ومخاوفه وشكوكه اليومية العادية والمتأزمة ...

ها قد احترق كل ما أحببت ... يوسف ... وكتبي ... ومحاولتي للتعزي بعدد الكتب الصادرة كل دقيقة في العالم ، هي كمحاولة تعزية ثكلى فقدت وحيدها بالقول لها : لا تحزني لموت طفلك ، فكل يوم يولد ٨٠ ألف طفل في العالم ! ...

شيء واحد يعزيني : هو أن تكون النار التي أحرقت بيتي من بعض النار التي ستطهر هذا الوطن من أوجاعه .

* * *

كابوس ١٨٤

شعرت بألم مرير يطير بي ، ويقذفني عن كوكب الحزن الاعتيادي ...

شعرت بأنني أخطو فوق كوكب زجاجي ، بارد ، ومليء بالمزالق ، لكنني أتقن المشي فوقه ... هنا الجاذبية أقل . لا أحد سواي على الكوكب ، لكنني أشعر بحرية مذهلة ... لقد فقدت كل شيء .. وها أنا بالتالي عدت لأمتلك حريتي كلها ...

كلما امتلك الانسان شيئاً ثقل وزنه ... ها أنا شفافة كدمعة ، حرة كسحابة ، احترق بيتي وانهارت نوافذه ، فعاد الأفق ليصير نافذتي ... وعاد جسدي ليصير مقر إقامتي وشعري وسادتي ، ودروب الليل اللامتناهية طرقاتي ... عادت الاحتمالات كلها لتنبت فوق عشب دماغي ...

كل شيء نفقده ، يعيد الينا في الوقت نفسه جزءاً من ذاتنا كنا نستهلكه في محاولة

Akhawia.net

الحفاظ على الأشياء ...

وها أنا لم أعد أمتلك شيئاً ، ولم يعد هنالك جزء من ذاتي مشغول بمحاولة الامساك بيوسف أو دفع الحريق عن رفوف كتبي ...

ها أنا كما أحبها ...

حرة حرة تستطيع أن تعاود اختيارانها من جديد ..

(... ومرة ذهبت ويوسف بحثاً عن بيت نقطنه ونتزوج . كان شرطنا الوحيد هو ان يكون على شاطىء البحر . وجدنا بيتاً خرباً عتيقاً يحتاج الى ترميم . احببنا موقعه المشرف على البحر من فوق صخرة ...

وفجأة تعلقت نظراتي ببقايا جدار ... كانت بقية جدران الغرفة كلها متداعية والسقف على الارض ، ووحدها بقايا الجدار منتصبة تحجب جزءاً كبيراً من البحر والافق ، وتتوسطها نافذة ... وبدت النافذة كما لو كانت إطاراً مربعاً ، منصوباً في وجه الافق كي نتطلع اليه عبر مربعها فقط ...

شعرت بالهلع ... سأعيش في هذا البيت نهائياً ؟ أي سأطلّ على العالم من خلال نوافذ البيت شئت أم أبيت .. ها انا افقد جزءاً من الافق ومن ذاتي ومن حريتي ... وهو ايضاً ...

لا ...

لن احب هذا . ولن يحبه هو . ربما كان من الافضل ألا نقضي نصف عمرنا في بناء جدران ونوافذ كي لا نقضي نصفه الآخر في هدمها ...

وقررت لحظتها بما يشبه القسم : لن اتزوج منه ، ولن ادعه يتزوج مني كي لا نفترق ويخسر كل منا الآخر ... سيراني دوماً بمثابة المقصلة التي اجهزت على حريته ... وسأراه كذلك ...

سألني : لماذا انت صامتة ؟

— لاشيء .

— هل احببت البيت ؟

— احببت الغرفة المطلة على البحر ...

ضحك : — تعنين الغرفة المهدمة ، الغرفة الوهمية ؟

Akhawia.net

وصمت . ولم اقل له أعني غرفة عرسنا التي لن تكون ابداً ... وأنا وانت يجب ان نظل منفصلين كي يختار كل منا صاحبه في كل لحظة لقاء .. كي نظل اختياراً ، لا الزاماً . كلانا عاجز عن الالتزام ... او .. احدنا !)

* * *

كابوس ١٨٥

تابع الموتى الخارجون من قبورهم جولتهم الليلية على الجيران الجدد ... قرعوا باب قبر آخر حديث ...

أطلت امرأة صبية ، ترتدي ثياب عرس ... سوداء ... الثوب أسود .. (الطرحة) على رأسها سوداء ، مطرزة بالأزهار واللآلىء السود ...

عيناها حزينتان وشاسعتان .. ووجهها لم يزرق بعد تماماً ، وفي منتصف جبينها ثقب من الدماء المتجمدة ...

قال لها (المستنطق) المقابري : أيتها العروس .. نرحب بك في مدينة السلام ونهنئك بسلامة الوصول من مدينة الجنون عبر درب العذاب .. والآن ، أروي لنا حكايتك .

لم تجب . ولم تهرب . ظلت جامدة كوزير أمام الكاميرا . دهشوا . . فالنساء غالباً يبدين شهية الى فتح صدورهن فور فتح توابيتهن وقبورهن ... وهذه تبدو متحفظة . قرر المستنطق اعتماد الأسلوب الآخر في مخاطبتها الأسلوب الذي يحدث به المثقفين والمجانين والمعقدين .

قال لها : جئنا لنرحب بك فقط . اذا احتجت الى أي شيء ستجديننا في الطرف الآخر من المقبرة . لن نزعجك الآن . سنتركك وحدك تألفين بيتك الجديد . وداعاً ...

همست : انتظر ... سأمشي معكم ...

سارت أمامهم والريح الشتائية تنفخ ثوب عرسها الأسود ، ولم تتمالك جمجمة عجوز نفسها فهمست : ما أجملها ...

وسمعته ، فساهم الإطراء في فك عقدة لسانها ... قالت : اسمعوا حكايتي ...

وبدأت تخلع ثوب عرسها ... قطعة بعد الأخرى وبرشاقة كما لو كانت راقصة في ملهى للتعرية بشارع فنيقيا البيروتي ...

Akhawia.net

وفوجئوا بأنها ترتدي تحت ثوب العرس قميصاً من المعدن ..

قالت : من منكم يستطيع مساعدتي على خلعه ...

تقدم منها هيكل عظمي ، حاول قليلاً وفشل ... كان القميص المعدني يغطي جسدها حتى أعلى الركبتين ، وبدا كما لو كان ملتصقاً بجلدها ...

وهنا تقدم هيكل عظمي آخر لمصارع قتل في حلبة الملاكمة ، وحاول انتزاعه عن جسدها ، وفشل أيضاً ...

ردت ببرود : لا أستطيع خلعه لأنه لم يعد قميصاً ، صار جلدي ، صار عضواً من أعضاء جسدي ! ...

كنت فتاة مدللة لأسرة ثرية . كان والدي تاجراً ماهراً ذا حدس خاص بالأسواق التجارية . وقد وجد في الحرب فرصة لتجارة من نوع خاص وهي بيع القمصان الواقية من الرصاص بالاضافة الى استيراد مزيد من السلاح وبيعه . وهكذا كانت تجارة السلاح تروج لتجارة القمصان الواقية منه .

وازدهرت أعماله وازداد ثراء مع ازدياد عدد الناس الذين يموتون . لكنه خاف علي وأخوتي من رصاص الطرفين بعد أن أعلن أننا أسرة محايدة ، ومنعني وأخوتي من متابعة الأحداث أو اتخاذ موقف أو الانضمام الى أية فئة ، وأصر على أن أولاده (محايدون) ... وهكذا أرغمني وإخوتي على ارتداء هذا القميص باستمرار فارتديته . ومنع عني الأخبار فشعرت بأنني أرتدي قميصاً آخر تحت جلدي كهذا القميص ... ومرت الأيام ، وأنا أعتقد أنني (فوق) الطرفين المتنازعين ، وان الحرب لا بد أن تتوقف ليعود كل شيء كما كان ... وبعدها أخلع القميص الحديدي المضاد للرصاص ، وأعود كما كنت ...

وليلة عرسي ، اكتشف عريسي أنني عاجزة عن خلع قميصي كأنني حرذون معدني ... عبثاً حاولت خلعه لأن القميص صار أنا ... فاتهمني بأنني من ساحرات الشيطان ... وأردت أن أفسر له حكايتي .

واكتشفت أنني فقدت القدرة أيضاً على خلع حتى قميصي الداخلي أي لم يكن لدي ما أرغب في قوله لأحد ، ربما لأنه لم يكن لدي ما أقوله على الاطلاق ! ...

ورغم القميص المضاد للرصاص قتلني برصاصة واحدة ... في جبيني .. دونما

Akhawia.net

أي ذنب ... قال لها المستنطق : جريمتك هي اللاانتماء .. والتوهم بأنك باللاانتماء تعفين نفسك من مسؤولية المشاركة فيما يدور ...

سألته مقاطعة : ما معنى « اللا انتماء » ... وما معنى « الانتماء » ..

رد عليها : سيدتي ، فات الأوان ، وحين لا يبقى منك غير هيكل عظمي ، وتسقط سترتك ضد الرصاص ، وعن داخلك أيضاً ، حينئذ قد تجد الحقيقة منفذاً الى نفسك ...

ومضوا عنها لقرع قبر ساكن جديد ... وسماع حكايته ... بينما كانت أصداء المدافع تدوي قادمة من بيروت ...

* * *

كابوس ١٨٦

آه ما أطول الليل ، حين تصير المسافة بين الموت والحياة ليلة انتظار . آه ما أبطأ انزلاق رمل العتمة الأسود ، حين تتحول كل ذرة رمل الى كابوس .

المطر ما يزال ينهمر ... ليت الغد يكون عاصفاً وممطراً مما يخفف فرص القناصين في صيدي . ليت المصفحة تجيء ... ليت آمال قالت غداً بوضوح .. ليتني أنام قليلاً وأكف عن حث رمل الزمن الأسود على الانزلاق ... ليتني أرحل قليلاً الى مدينة النوم والنسيان بدلاً من قضاء الليل في محاولة دفع الكرة الأرضية كي تدور أسرع بقليل ...

المطر ما يزال ينهمر ... تذكرت كيف اغتسلت تحته . ما يزال الهباب يغطي يدي رغم غسلي المتواصل له ... تروعني آثار الهباب كما لو كانت دماء الأشياء .. أقرر أن أنهض لغسل يدي ... الماء ما يزال مقطوعاً . الحنفيات لم تعد تصدر صوتاً كالشهيق حين أفتحها . كأنها ماتت وانتهى الأمر ، وها هي ممددة على طول الجدران كالجثث ...

إذا لم أخرج غداً من هذا الجحيم ، سأعطش أيضاً . سيكون عليّ أن أجمع ماء المطر في أوان وأشربه ... لن أتمكن من غليه ، فقد انتهى الغاز أيضاً ... سيكون علي احضار أية أخشاب من الحديقة لإحراقها وغلي الماء ... لكن الأخشاب كلها مبتلة ، والخروج الى الحديقة يعرضني لرصاص القناصين . إذن ، عليّ ادخال الأخشاب ليلاً ،

Akhawia.net

وتركها ريثما تجف ... وعلي أن أفعل ذلك الآن ... فقد لا تمطر غداً .. وقد لا تحضر المصفحـــة .

ونفخت الريح ، فأطفأت الشمعة في يدي ... ولم أخرج لجمع ماء المطر وإحضار أخشاب لتجفيفها ، كأنني أرفض أن أصدق أن المصفحة لن تحضر عند الصبـــاح لانقاذي ...

في الظلام ، شربت قليلاً من الماء ، ورغم العتمة شعرت بالكلس اللامرئي يلتصق بلساني .. لم أعاود اشعال شمعتي . كنت قد ألفت التحرك في هذا البيت وسط الظلمة الدامسة كما يتقن ذلك العميان بمرور الزمن ، ولا يصطدمون بأثاث البيت ...

أصل الى ركني المقابل للنافذة ...

ألصق ظهري الى الحقيبة البرتقالية ... أسند يدي الى المسدس وأتحسسه في الظلام كامرأة تكتشف جسد عريسها للمرة الأولى . فيه عدد كبير من النتوءات والصمامات لم أكن ألحظها في أفلام المغامرات والصور ، وصحيح أنني لم أعد أراه مجرد بقعة من السواد البشع واني أكاد أراه على ضوء جديد ، لكنني أعجز عن مقاومة رعدة تتمشى في أوصالي وأنا أتحسسه .. كأن علاقتي به نوع من الزواج الارغامي من أجل لقمة الطعام . انني أحتاجه ، لكنني ما زلت أمقته ! ...

* * *

كابوس ١٨٧

لست نائمة . لست صاحية . انني أنتظر .

أهذا هو الفجر قد بدأ ينثر رماده فوق سواد الليل ، أم تراني واهمة ، استعجل قدومه ، وأراه كرؤية العطشى للسراب ؟ ...

بلى ... انه الفجر ..

الفجر . واهمة . الفجر . واهمة ...

لا ... انني واهمة .

أياً كان الأمر ، فلا بد أن الفجر أوشك على الوصول ... فالارهاق الذي أحسه هو إرهاق من قضى الليل بأكمله ساهراً ... بل انني أحس بالنعاس الذي يداهم الأرقين عند الفجر ...

Akhawia.net

أجل ... أحس بالنعاس . أبذل مجهوداً خارقاً كي لا يسقط جفناي فوق عيني . جفناي أحسهما ثقيلين وحملهما يتطلب مجهوداً عظيماً خارقاً ... يجب ألا أنام ، فقد تأتي المصفحة بينما أنا أغط في النوم ، وأضيع بذلك فرصتي الوحيدة للنجاة ... يجب ألا أنـــام ... ويجب أن أنجو .. وتذكرت القتلـــة الذين تفور بهم شوارع الموت ، والذين ضيعوا الفرق الحاسم بين المناضل والسارق ، وبين المقاتل والقاتل ، وبين صاحب القضية واللص ، ووجدت يدي تشدد قبضتها على المسدس ... وسط هذه الغابة من الرعب ، تصير هذه البشاعة المسماة سلاحاً وسيلة البقاء الوحيدة .. ولكن ،، تراني أقوى على القتل ، أنا التي يحز في نفسها قتل طائر ! ...

* * *

كابوس ١٨٨

لعلي سقطت في فخ النوم ... لعلي غفوت لثانية ، ولعلي غفوت لعام ..

لكني استيقظت فجأة على حركة مريبة خلف النافذة ، كأن هنالك من يحاول أن يفتحها ... وغمرني خوف مسعور كتيار كهربائي جبار ...

وقبل أن أعي تماماً ما أفعله ، فوجئت بأنني أرفع المسدس في الظلام وأطلق النار باتجاه النافذة ! ...

وسمعت شهقة احتضار خافتة ، وصوت سقوط شيء على الأرض ...

كان الصوتان على درجة عظيمة من الوضوح ، أو أن حواسي كانت على درجة غير عادية من الارهاف .. وصرخ أمين في الوقت ذاته تقريباً ...

أشعلت الشمعة . أمين يرتجف : ماذا حدث ؟ سمعت صوتي بارداً : لقد قتلت شخصاً ما كان يحاول التسلل من النافذة ...

صرخ : يا الهي ... ربما كانوا أكثر من واحد ...

وفكرت بهلع : انه على حق . والآن لن يكتفوا بالسرقة ، بل سيلجأون الى القتل انتقاماً لشريكهم ... وشعرت بأن السلاح لا يمكن أن يحل المشكلة ... بل انه يعقدها ، وانه لا بد من البحث عن وسائل أخرى للبقاء ، لكنني أيضاً لم أكن قادرة على التفكير طويلاً بهذه القضية ...

كانت هنالك حقيقة مروعة ارتسمت أمام عيني : وهي أنني قادرة على القتل .

Akhawia.net

حسناً ليس على القتل تماماً ، فانا لحظة أطلقت النار كنت أطلق النار ولا أقتل ، كنت أدافع ولا أهاجم ، كنت أحافظ على حياتي ، ولا أسعى لسرقة حياة أخرى ...

ولكن النتيجة واحدة .. وهي أنني أطلقت النار ! ...

ركضت وأمين نحو النافذة . كان الفجر الرمادي يغمر العالم بضياء كئيب وتحت النافذة وجدت جثة قتيلي : كلب ! ...

وضحك أمين بعصبية هستيرية ، ووجدتني أردد : ولكنني أطلقت الرصاص ! .. أي أن النتيجة واحدة ... بالنسبة الي ! ..

وطبعاً لم يفهم ما أعنيه ...

* * *

كابوس ١٨٩

ظل صدى الطلقة يرن طويلاً في أذني ... وما يزال ... رائحة البارود ما تزال تملأ أنفي .. ربما كانت الساعة تقارب السادسة أو تزيد قليلاً ... وأنا أرهف السمع لصوت المصفحة ...

القصف شبه هادىء منذ ساعات ، أما اطلاق رصاص الرشاشات فلم أعد أبالي به كثيراً .. ثم انه لن يعيق المصفحة عن الوصول ... وحدها القنابل بل صواريخ غراد وكاتيوشا هي التي قد تعوق فراري ... ومنذ حوالي منتصف الليل والقصف هادىء ... يا الهي ! دع المحاربين يغرقوا في النوم قليلاً ريثما أتسلل من ساحة حربهم ، أنا التي لا تملك غير مسدس دونكيشوتي هزلي في طوفان النار ... دعهم يستريحوا ويريحوا ! ...

ولم أكد أتم دعائي ، حتى بدأ قصف المدفعية الثقيل ! ...

* * *

كابوس ١٩٠

مع انفجار كل قنبلة ، كان حبل الأمل بالخروج من هذا الجحيم ينقطع .. ويتناثر خيطاناً رفيعة لا تقوى على رفع نملة ..

لكنني أعددت نفسي على أية حال ... حملت حقيبتي البرتقالية وجلست خلف نافذة تطل على الحديقة الأمامية أنتظر .

أنتظــر .

Akhawia.net

أحاول أن ألتقط هدير المصفحة الذي حفظت صوته جيداً. أحاول أن أمشط شعري الذي نسيت أنه موجود منذ أيام ... أحاول أن أرى وجهي في مرآة صغيرة ، في الضوء الشتائي الفقير القادم عبر النافذة شبه المغلقة ...

حين شاهدني أمين أنظر الى وجهي في المرآة ، تنبه – لربما للمرة الأولى – الى أنني أستعد للقاء العالم الخارجي .

وعى للمرة الأولى لإمكانية خروجي ، وبقاءه وحيداً .. فقال بصوت مرتجف : ستذهبين ؟

قلت : طبعاً . لماذا لا تخرج معي من هذا الجحيم ؟

– والبيت . سينهبونه ...

– سينهبونه سواء خرجت أم بقيت ..

– هذا بيتي . وسوف أموت فيه . لن أعيش لاجئاً متشرداً ..

– ولكنك لاجىء ومتشرد حتى وأنت فيه . لا استقرار في وطن متشرد .

– تتكلمين هكذا لأن بيتك احترق وانتهى الأمر .

– حتى ولو لم يحترق فأنا لست على استعداد لأن أموت من أجل جدران أستطيع استبدالها بجدران أخرى . كل ما يستطيع المال شراءه لا يستحق الموت لأجله . انك تستطيع شراء بيت لكنك لا تستطيع شراء وطن ! .. يجب أن تظل حياً كي تناضل لأجل امتلاك وطن لا قبر .

– تتكلمين هكذا لأن بيتك احترق وانتهى الأمر ..

– هذا غير صحيح ... مكتبتي التي تعتبرها تحفي ، لا تستطيع أن تعوضني عن البحر والغابات والسماء والعشب وشروق الشمس وبريق النجوم وأسراب الطيور والمطر والثلج والسفر والدهشة والحب والحياة والدفء والسباحة وكوب القهوة الحار في المطر والموسيقى والتفكير والبكاء وركوب الدراجة والعمل وانجاز كتاب جديد ... ان الحياة شيء ثمين ورائع ، وكي أتخلى عنها لأجل شيء ما ، يجب أن يكون ذلك شيئاً يستحق هذا العطاء العظيم .. وأنت تعرض حياتك للخطر من أجل تحفك ، وتسميها خطأ بالوطن ...

– تتكلمين هكذا لأن بيتك احترق وانتهى الأمر ..

Akhawia.net

— ربمـــا ...

* * *

كابوس ١٩١

سمعت صوت مصفحة حين كدت أقطع الأمل من وصولها ، تماماً كما في أفلام المغامرات ! ... وحملت حقيبتي البرتقالية ، وركضت .. لم أودع أمين كما يحدث في أفلام المغامرات ، لأنني لم أكن واثقة من أنني سأغادر المكان حية تحت وابل الرصاص والقصف .. ثم أنه سبق لأكثر من مصفحة أن جاءت لالتقاطي ومضت قبل أن تقدر على ذلك .. وخلفتني كالمتسولة على أبواب الأمل الموصدة ....

خرجت الى الحديقة ، وركضت صوب الباب وكدت أتعثر بجثة الكلب الذي قتلته ، فلم أجد أحداً على الرصيف بانتظاري ... كنت أسمع صوتها ، ولا أراها ، وخيل الي أنني بدأت أفقد عقلي ، وأسمع فقط ما أشتهي سماعه ...

رفعت رأسي أتأمل النوافذ المحيطة بي . كانت النار مندلعة في الطابق العلوي من فندق « الهوليداي إن » المقابل لبيتي (المرحوم) ... أما النوافذ المقابلة لي على الرصيف الثاني فقد كان أكثرها موصداً ...

في الطابق الثالث من البناء المواجه لي ، انشقت النافذة قليلاً ولمحت رأس امرأة تحدق في شيء ما ناحية آخر الطريق ، أي ناحية مبنى آل جنبلاط ... ثم بدأت المرأة تشير لي صوب ذلك المكان ..

وفهمت ...

انها تعني أن المصفحة هناك ... لكن أسوار الحديقة تحجبها عن ناظري .

لم أعد أشعر بشيء إلا بالرغبة في اللحاق بها ... غادرني خوفي وحذري وخرجت من خلف عارضة الباب الحجرية الى رصيف الشارع لأول مرة منذ عشرة أيام على الأقل ...

وكانت هناك ... المصفحة ...

وكان علي أن أصدق ! للمرة الأولى فهمت مدلول عبارة « لم تصدق ما تراه أمام عينيها » ...

في مثل هذه اللحظات تذوب الحدود بين قارة الحلم الفضية وقارة الواقع السوداء ...

Akhawia.net

وتبدو المرئيات سائبة داخل الرأس ، لا يدر ٍ تماماً كيف يصنفها ، ليست فضية ولا سوداء ، لكنها بلون هذا الصباح الشتائي المتقب على أسياخ النار والبرد ، بلون نخوة الحس بالتضخم الحياتي المنتعظ في كل خلية من خلايا جسدي وذروة الحس بالخطر والموت الذي يحاصرني مع كل طلقة داخل ماسورة حديدية لم تطلق بعد ، واذا أطلقت فقد يكون رأسي هدفها .

وكانت هنالك ... المصفحة ...

وغادرني كل حس بالحذر ... وصرت أركض خلفها كما لو كانت القطار الأخير الخارج من مدينة الموت ...

* * *

كابوس ٢٠١

كم هو غريب شكل العالم حين تحدق فيه من فوهة مصفحة ... كم هــو مختلف ...

لا نوافذ في المصفحة ، وانما كوة واسعة مفتوحة في أعلاها ... وترى العالم ينزلق بسرعة فوق هذه الكوة ، بالأحرى الجزء المرتفع فقط من الأبنية أو الأشجار ...

لقد اعتدنا على رؤية العالم من زاوية أخرى ...

من نوافذ البيوت أو السيارات العمودية التي تسمح برؤية كل ما في الطريق أو على الأقل الجزء الأسفل منه الأقرب الى الأرض .. أو النظر اليه ونحن في وضعية الوقوف أو السير في الشارع بحيث تطال عيوننا أي مكان بحرية .

من داخل المصفحة ، لا تستطيع أن ترى إلا الجزء الذي تفرضه عليك الفتحة العليا الضيقة ... وأعلى الأبنية في شريط راكض على سطح السماء .. ومرت المصفحة من تحت فندق « الهوليداي إن » وكان صمت متوتر يسود داخلها ثم تجاوزته دون أن تطلق علينا قذيفة ... وحاولت بعدها أن أحدد الشارع الذي تمشي فيه المصفحة فعجزت ... كل هذه الدروب المحيطة ببيتي والتي يفترض أن أعرفها جيداً ، لم أعد أميزها من نافذة المصفحة في الأعلى ... وخيل الي أنني أمضي الى مصير مجهول في شوارع مجهولة غريبة ، وكلما حدقت عبر النافذة المفتوحة في سقف المصفحة ، ازداد شعوري بأنني مثل مشلول ممدد على ظهره ، يجرون سريره في دهاليز مستشفى غامضة مرعبة ..

Akhawia.net

وكففت عن محاولة حدس الطريق التي تمضي بها .

وبدأت أنظر الى من حولي ...

قدم أحدهم نفسه لي : سليم منصور . الآخر : الملازم اسماعيل ياسين من احدى المنظمات .. الضابط الذي يقود المصفحة : الملازم ملاعب ...

وكانت هذه أول مرة أرى فيها بشراً (غير جيران العذاب) منذ حوالي نصف شهر ... شعرت بالحاجة الى طرح أسئلة كثيرة عما يدور في العالم الخارجي بعد انقطاعي الطويل ، وتزاحمت الأسئلة ، وتصارعت داخل حنجرتي ، كل منها يريد الوصول الى لساني قبل الآخر ، وأباد بعضها بعضاً في مجزرة دفق حيوي مؤلم ... ولم يبق غير الصمت على لساني ...

وسقطت فريسة شعور غريب بالرهبة والحيرة ، والسماء تنزلق في الأعلى حيادية ولا مبالية .. وقبل أن يقول أحد شيئاً توقفت المصفحة .. وفتح أحدهم بابها . تفضلي ...

وعبر المستطيل الضيق لباب المصفحة ، قذفت بنفسي الى العالم في ولادة جديدة ...

وخرجت منها كما يولد الأطفال وأيديهم لا تقبض على أي شيء .. وأصابعهم العشر مفتوحة لتمسك بالمفاجأة والدهشة والمجهول ...

... ونشوة الفرح تغمرني ، رافقت الأخ سليم والملازم اسماعيل الى احدى السيارات. ركضت بنا قليلاً قبل أن يسألني أحدهم : الى أين ترغبين في الذهاب ؟ .. قلت بحيرة : لا أدري ! وعندها فقط تذكرت أنه لم يكن قد خطر ببالي قط من قبل أن أخطط : الى أين أذهب بعد نجاتي ! ..

لقد كان احتمال النجاة ضئيلاً الى حد أنني لم أفكر لثانية واحدة أن لحظة ما ستجيء وسيكون علي حينئذ أن أقرر : الى أين أذهب ؟ ..

لم أشعر بشوق الى جدتي أو أي فرد من بقية أسرتي . كنا دوماً غرباء .. وأنا النعجة السوداء في الأسرة .. وهم الآن – دونما ريب – قد رحلوا الى بيت أخوالي السوريين باللاذقيـة .

ظللت صامتة وقد أذهلني اليسر الذي تم به خروجي . بل انني لم أسمع طلقة واحدة منذ غادرت بيتي ..

Akhawia.net

قال السيد سليم : (الريس) يريد أن يراك على أية حال .

ولم أجب . وتوقفت السيارة أمام أحد البيوت ، وحين ترجلت منها فقط ، وعيت الكارثة : لقد نسيت حقيبتي البرتقالية داخل المصفحة حين غادرتها كطفل ولد حديثاً ، بذراعين لا تقبضان على أي شيء غير المجهول ! ...

* * *

كابوس ١٩٣

يجب أن أستعيد الحقيبة بأي ثمن ! ...

قال لي الملازم اسماعيل : ادخلي وسنحاول الاتصال هاتفياً لاستعادتها .

دخلت . كانت غرفة عارية من الأثاث ، الا من منضدة عليها هاتف ، وأريكة نام فوقها مقاتل طويل اللحية . فتح عينيه قليلاً حين دخلت . رفعت سماعة الهاتف . لا خطوط . على أية حال لم أكن أدري أي رقم أدير ومع من أتكلم لاستعادة الحقيبة . الحقيبة التي تضم جواز سفري ونقودي القليلة وبعضاً من مذكراتي و (نوطات) « كوابيس بيروت » .. و .. وأوراق يوسف ..

وشعرت ببعض الخجل حين أحسست أن أوراق يوسف لم تعد تعني لي شيئاً أكثر مما تعنيه جثة العم فؤاد في برميل القمامة . آه يوسف . هل كان من الضروري أن تقع حرب أهلية كي أفقدك ؟ . وهل كان ضرورياً أن تستمر كي أنساك ؟ هل كان ضرورياً أن أكاد أموت كي أكف عن المبالاة بموتك ؟

يجب أن أستعيد الحقيبة بأي ثمن .

ركضت الى السيارة . توسلت اليه أن يعيدني الى حيث أنزلتني المصفحة في شارع سبيرس على حدود القنطاري أمام مركز الصليب الأحمر ...

ولعل الجنون مرض من الأمراض السارية ، فقد وافق على ذلك .

حواجز مسلحة . شوارع خاوية . بدت درب العودة أطول بكثير مما كانت عليه ...

وأخيراً لاح برج المر ، فانعطفنا الى اليسار في شارع سبيرس (عكس السير) ولم يكن هنالك أي سير . ولم أجد المصفحة في الموضع الذي أنزلتني فيه ، لكنها بدت لي في آخر الشارع أمام حديقة الصنائع . قلت ذلك لجندي الحاجز فرفض السماح لنا بالاقتراب من المصفحة بالسيارة وقال انه يسمح لي بالذهاب الى هناك ... وحدي .

Akhawia.net

ونزلت من السيارة ... وقلت لرفيقي أن ينتظرني وركضت نحو المصفحة في حقل من الرشاشات المتأهبة للانطلاق في أية لحظة .. وكان الجنود يحدقون بي بدهشة كما لو كنت (ماتا هاري) في مهمة غير سرية ! .. ولم أكن أحس بالخوف ولا بالخجل ولا بالبرد ولا بالألم ... كان كياني كله مركزاً على هدف واحد : يجب أن أستعيد الحقيبة بأي ثمن .. وبعدها أبحث فيما اذا كنت أرغب في الاحتفاظ بمحتوياتها أو قذفها الى الريح ! ..

وكان في ذلك الاصرار ما يلغي أي حس آخر كما تفعل اليوغا ... ولو اخترقني سيف لتابعت ركضي بحثاً عن الحقيبة .

في منتصف الطريق الى المصفحة فوجئت بسيارة عسكرية تستوقفني .

سألني جندي عن غايتي وهدفي من التجول في منطقة عسكرية ، وكان رشاشه مصوباً نحوي . أزحت الرشاش عني ، وصعدت في السيارة الى جانبه وطلبت منه ايصالي الى المصفحة لأنه لا وقت للكلام .

والغريب أنه فعل ! ...

وأخيراً وصلت .

هبطت من (الجيب) العسكري ، وتسلقت باب المصفحة المفتوح وأنا أسأل : أين الحقيبة البرتقالية .

وفوجئت بأن وجوه سبعة من الجنود تحدق بي في ذهول ، وبأنني لم أر هذه الوجوه قط من قبل ... وبأنني في مصفحة أخرى ! ...

* * *

كابوس ١٩٤

لم يصدق أحد حكايتي ...

بعضهم صدق نصفها ،وهو أنني أضعت حقيبة برتقالية ،لكنه لم يصدق نصفها الباقي وهو أن الحقيبة لا تحوي مجوهرات أو نقوداً وانما ... تحوي أوراقاً : ... مجرد أوراق .. كان من غير المعقول بالنسبة اليهم أن تعرض امرأة حياتها للخطر بعد انقاذها بنصف ساعة لمجرد أنها أضاعت بعض ... الأوراق . بالنسبة اليهم ، الورق الوحيد الذي يستحق عناء التضحية هو الورق الملون الذي تطبعه الدولة ويسمى « النقود » .

Akhawia.net

وحين كنت أروي حكايتي للمرة الخامسة ، مضيفة اليها اعترافاً خطيراً وهو أن الحقيبة تحوي ملحوظات (ونوطات) لكتابة رواية اسمها « كوابيس بيروت » ، لاحظت أن قائد المصفحة الرقيب زين يفهم جيداً ما أعنيه ..

قال لي مفسراً : المصفحة التي أخرجتك هي مصفحة أخرى ، فنحن نقف هنا منذ ساعات ، ولم يتغير (طاقمنا) .. ما رقم المصفحة التي خرجت بها ؟

قلت : لا أعرف .

قال : هل تستطيعين وصف قائدها ؟

قلت : ضابط على كتفه نجمة أو نجمتان ، أسمر وفوق شفتيه شاربان . ضحك الجنود ، وقال الرقيب زين بتهذيب ورقة : ولكن هذا الوصف ينطبق على نصف ضباط الجيش اللبناني ! .. ألا تذكرين اسمه ؟ ...

وعبثاً حاولت . كان الاسم ينزلق من خاطري مثل حروف من زئبق ... كنت أعرفه ولا أعرفه . اذا ذكره شخص أمامي ... سأعرف انه هو .

قلت ذلك للرقيب زين . فبدأ يعدد لي مجموعة من الأسماء ، وذكر اسم الملازم ملاعب .. وصرخت : انه هو ..

قال : لقد كان يقود المصفحة ١٩ .

وتناول جهاز اللاسلكي وبدأ يخاطب شخصاً لامرئياً ويبلغه حكايتي وحكاية الحقيبة والملالة .. ورد الصوت بكثير من اللامبالاة : أخذنا علماً بذلك .. بدل ! .. وانتهى الأمر ...

طبعاً لا .

يجب أن أستعيد الحقيبة بأي ثمن . تلك السطور التي كتبتها في دهاليز الرعب على ضوء الشموع وأنقذتها وحدها من النـار لن أسمح لها بأن تضيع . هي وحدها ما يهمني أمره حقاً .. ومذكراتي .. لا أريد أن يطلع عليها أحد ، داخلاً الى أعماقي ، مستمتعاً بمشهد (الستربتيز الفكري) الذي تقدمه سطوري ... أما أشياؤه .. أشياء يوسف فإنها لم تعد تهمني كثيراً أحسها مجرد كوم من رماد ..

قلت للرقيب زين : أين المصفحة ؟ سألحق بها .

جاءوا بفطور الصباح عجينة مخبوزة بالزعتر والزيت « مناقيش » . قاسمني الجنود لقمتهم وسجائرهم . بعدها بقليل سألني الرقيب زين : الى أين ستذهبين ؟ سنحاول أن

Akhawia.net

تتدبر لك تاكسياً ما ...

قلت : لست ذاهبة الى أي مكان .. سأنتظر .

اتصل للمرة الثانية لاسلكياً .. سمعته ينادي : ٢١ بدل . ٢١ بدل ... ماذا حدث بشأن حقيبة السيدة . رد الصوت المجهول اللامبالي : أية حقيبة ؟ .

والتهبت جنوناً .

سألته مع من يتحدث . قال : مع « مركز الارتباط » .

قلت : سأذهب الى هناك .

قال في محاولة لتخويفي (أم تراها الحقيقة ؟) : انه يقع في ساحة الشهداء ، أحد مراكز القتال الملتهبة !) .

قلت : سأذهب .

وكنت أعني ما أقول . وأدرك هو ذلك ، وأشفق علي من قذيفة أو رصاصة قناص ، لأنه أردف قائلاً : انتظري قليلاً فقد يردنا جواب .

وانتظرت .

ومر صبي على دراجة نارية . استوقفته . أردت اقناعه بأن يؤجرني دراجته ريثما أذهب الى مركز الارتباط وأعود . كنت أعرف أنه كلما مر الزمن ، تناقصت فرص حصولي على الحقيبة .. واستعادتها .

رفض الصبي ،وقال الرقيب لي: المصفحة الآن في ثكنة الحلو . والضابط الذي حملك فيها قد يكون ذهب لشأنه بعد ليلة من السهر . استسلمي للهدوء ، واعطني عنوانك وأنا أعدك بالاهتمام بالأمر ...

ومرت مصفحة أخرى ... ركضت خلفها وأنا أشير اليها بعلامة أتوستوب ... ولم تتوقف ...

لكن الرقيب زين بذل جهداً كبيراً لإقناع أحد رؤسائه بابقائي في المصفحة ريثما تتم دوريتها وتصل بي الى ثكنة الحلو .. كان يساعدني بكل ما يملك من طاقة ... وفكرت : لم تمت الطيبة من هذا العالم القبيح .

وجلست داخل المصفحة بانتظار الدورية ...

ولاحظت ، للمرة الأولى أن جندياً تمدد على المقعد الحديدي الطويل المقابل لي ،

Akhawia.net

وكان يفتح عينيه بصعوبة ويحدق بي مدهوشاً . قلت له : صباح الخير !

فتحسس ذقنه الطويلة ثم سأل الرقيب زين : ماذا يحدث في المصفحة ..

قال الرقيب ضاحكاً : سنقوم بمهمة تاكسي للسيدة ! .. وبالأحرى ... بمهمة المصفحة ـ ستوب ! ...

* * *

كابوس ١٩٥

الرقيب زين يتحدث باللاسلكي . أنصت الى الحوار ، وأتذكر انني كنت أنصت إلى هذه الأحاديث بواسطة جهازي الخاص بالالتقاط (الذي سرقته من أمين) ... كنت أنصت والقنابل تمطرني .. ولعل امرأة أخرى تنصت الآن الى هذا الحوار على الموجة المحرمة . وتتساءل عن سر الحقيبة ، وتشتم ، لأنها تكاد تموت بالقصف ـ والمصفحات مشغولة بالبحث عن الحقائب بـــدلاً من انقاذ البشر .. ولكن ، كيف أقنعها بأن (مخطوطة الرواية) هي كالطفل : كائن حي ! ..

الزمن يمر ببطء مروع . أشعر بالندم لأنني لم أمسك بالحقيبة في يدي .. ولكن الندم لا يجدي . سأفعل كل ما بوسعي لاستعادتها .. هذا كل ما أملكه الآن ...

وأخيراً ... تحركت المصفحة ..

ووجدتني أحشر نفسي بين عدد من الجنود الحاملين بنادقهم ، والمصفحة تتحرك بسرعة وتقذف بنا في كل جانب فيصطدم جسدنا بباطنها الحديدي كأننا في أحشاء حوت معدني ضخم .. (كنت ممتلئة بالحياة وتخيلتهم يمتلكونني واحداً بعد الآخر فوق حديد المصفحة القذر بينما هي ترتجف وتهتز بعنف راكضة في الشوارع) ..

وتمسكت بحلقة جلدية تتدلى من جدار المصفحة ، وكانت أسلحة الجنود الجالسين على المقعد المواجه لي موجهة نحو صدري ... وكان بعضهم متعباً يغط في لحظة نوم يسقط رأسه خلالها على عنقه كما لو أن رصاصة أصابته ، ثم يصحو نصف صحو ...

بدوا لي قبيلة من المتعبين المدججين بالسلاح ، وتذكرت أنه لم يسبق لي أن احتككت جسدياً مع هذا العدد الهائل من الأسلحة ... وتذكرت المسدس الـــذي حملته معي في قـــاع حقيبتي ... وتذكرت ، انني ارتكبت جريمة قتل .. صحيح أنه تصادف ان

Akhawia.net

كان هدف رصاصي كلباً .. لكنني أطلقت الرصاص دون أن أدري ما اذا كان بشراً أو وحشاً .. ودون أن أدري ما اذا كنت بشراً أو وحشاً .. وقررت : العنف يمارس ولكنه لا يفلسف . انه يمارس .. وكفى ! .

وكانت السماء وأعالي الأبنية تنزلق في الفجوة الضيقة بأعلى المصفحة .. وشاهدت مبنى « الهوليداي إن » من الكوة للمرة الثانية هـذا الصباح وكانت النار ما تزال تتصاعد منه وأصابتني رعدة خوف .. ها هي المصفحة تقوم بدوريتها ، وها هي تعيدني الى المكان الذي غادرته منذ ساعات ... ترى هل كتب علي أن أموت في هذا الشارع ، وقد هربت من قدري ، وها هي المصفحة تعيدني لأموت فيه كما هو (مقدر) لي و (مكتوب) ؟ .. وقررت أنه اذا انفجرت الآن بالمصفحة قذيفة ما ، فذلك لأن شخصاً ما أطلق النار عليها ، لا لأن رصداً ما كتب عليّ أنا ...

ومع ذلك شعرت بخوف مبهم ... وجلست على المقعد الحديدي محشورة بين الجنود ، أتحاور والجندي ابراهيم وأسأله عن أحواله وأنا أتمنى لو أحدثه عن (أحوالي) ..

وأخيراً وصلنا الى ثكنة الحلو .. توقفت المصفحة .

من الخارج فتح جندي بابها ، وحين شاهدني بشعري الأسود جداً وملامحي العربية جداً قال معلقاً بعفوية : كيف أنقذتم هذه المرة « عربية » لا « أجنبية » !

وشعرت بغصة . لا ريب وأن بعض (كبار) هذا البلد يستخدمون المصفحات لنقل عشيقاتهم الأجنبيات .

* * *

كابوس ١٩٦

أين أنا ؟ في ثكنة الحلو ...

وكما في الأفلام الرديئة ، حين تأتي الخاتمة السعيدة ، تأتي بسرعة ...

دقائق ، وانتصب أمامي الملازم ملاعب وهو يرتدي (بيجامة) ثياب النوم . كان واضحاً أنهم أيقظوه من نومه .. ووجدتني أصرخ به : وهل كتب علي أن أركض خلفك بالمصفحات ؟ كان بعض الجنود قد تجمعوا حولنا ، وحين سمعوا عبارتي الأخيرة ظنوا أنني زوجة غاضبة فتغامزوا وضحكوا وغضوا الطرف والأذن .. أما هو فضحك ،

Akhawia.net

وقدم لي حقيبتي ...

الحقيبة البرتقالية ...

وفتحتها أمام الجميع ، وشاهدوا جميعاً مظروفاً كبيراً أصفر ، كتب عليه بخط واضح : « مخطوطة كوابيس بيروت » ...

قال لي الملازم ملاعب : قرأت لك مرة في احدى المجلات تحقيقاً من السجن مع مجند اسرائيلي هارب من اسرائيل الى لبنان ..

وبدأ بعض الجنود ينظرون الي من جديد كما لو كنت (ماتا هاري) التي تقتحم السجون والثكنات وتستخدم المصفحات كتاكسيات من أجل انقاذ أوراق هامة غامضة أو سرقتها ...

وتحركت بي المصفحة من جديد ... ولا أدري لماذا وجدتني أوجه الكلمات الى الحقيبة كما لو كانت شخصاً تخلى عني ! ..

وسألني الرقيب زين والمصفحة منطلقة : الى أين ترغبين في الذهاب ؟

قلت : الى أي مكان ... أين نحن الآن ؟

قال : أمام فندق كارلتون من ناحية البحر .

قلت له : انزلوني هنا .

توقفت المصفحة . ودعته وأنا أعرف أنني مدينة له ... وانني لن أنسى ما حدث .. وان الطيبة لم تمت في هذا العالم القبيح ..

قلت له : شكراً لك . ولن أنسى فضلك ...

أجاب دونما حماس : لا شكر على واجب ..

وفكرت بحزن :

(انه يعتقد أنني سأنسى ، كما ينسى باستمرار جميع الذين سبق له ان قدم لهم الخدمات. الجميع يتحمسون في لحظات (اليوفوريا) ، لحظات تلقي الجميل ، ومع الزمن تفتر العواطف ، وتشحب الوعود ، وتمحي الكتابات عن شطآن نفوسهم الرملية ...

انه لايعرف أنني امرأة من الصوان ... وما ينجح في ان ينقش باعماقي ، يظل أبداً حاراً وجديداً لا ينتقص منه الزمن) ...

كانت المصفحة ما تزال تهدر ، ولم يكن بوسعي أن أشرح له ذلك ... فقلت له

Akhawia.net

بصوت خافت لم يسمعه : لن أنسى لك جميلك أبداً ... أرجو منك أن تصدق ذلك ..

وانطبق باب المصفحة الحديدي ... ومضت ... ووجدت نفسي وحيدة على الرصيف ...

* * *

كابوس ١٩٧

أقف وحيدة على الرصيف ، وعلى كتفي حقيبة صغيرة ...

وحيدة ... وحيدة ...

كما كنت أبداً ... والكرة الأرضية صفر كبير «0» . وأنا أقف على الصفر من جـــديد ...

على تراس (شرفة) الفندق مجموعة من الناس ، تنتظر صعودي . لقد شاهدوني أهبط من المصفحة ، وهم ينتظرون سماع حكايتي ، ولعلهم جهزوا لي علبة مناديل (كلينكس) لمسح دموعي .. انني جائعة ، جائعة للأكل ، جائعة للماء ، جائعة للنوم ، جائعة للسلام ، ومفتوحة الجراح ، ولكن ليست لدي حكاية ! .

ليس لدي ما أرويه لأحد . لا أحس بالدهشة . ولا بالخوف . ولا بالغربة .

ما زلت أقف على أول السلم . لا أتسلقه الى الفندق .

أحس بأنني أنا ، وبأنني وحيدة ، وبأنني بالتالي على أفضل حال ..

أقف على الصفر من جديد ... الكرة الأرضية شارة استفهام كبيرة وأنا أقف على نقطتها .. على صفرها .. أعتلي ميزاناً فيدل مؤشره على نقطة الصفر .. لقد احترق كل شيء وأنا في نقطة انعدام الوزن ، وفي حقيبتي البرتقالية أختزن ما اخترت حمله من عالمي العتيق المحترق : أشياء يوسف . (لماذا لا أقولها ببساطة : جثة يوسف) . المسدس . أوراقي . أقف على الصفر من جديد .

علمتني الأيام أن الصفر أكبر رقم في حياتي . الصفر ليس خسارة بالنسبة الي ، إنه دوماً بداية لقفزة أبعد مدى ولسقوط أكثر إيلاماً لكنني دومـــاً أنهض من رمادي بعد أن يبكيني الفرح ويرفعني فوق سحابة عن مستنقع الرمال المتحركة ، ويرقيني صائحاً في وجـــه الليل : رقيتك يا طفلتي ضد الانهيار لا الحزن . رقيتك يا طفلتي ضد السقوط لا الخيبة . رقيتك يا طفلتي ضد الاستسلام لا الهزيمة . رقيتك يا طفلتي ضد السلبية لا الخطأ . رقيتك يا طفلتي ضد السلام اذا كان استسلاماً ... ويرقيني الفرح وهو

Akhawia.net

يدور حولي ويقرع بطبلته طوال الليل ، وحين يطلع الفجر ، تشرق الشمس داخل أفق صدري ... وأنهض من تابوتي لأنشر شعري في الريح كشراع خرافي لقارب مسحور ...

ما زلت أقف وحيدة .

أقف على الصفر من جديد . انها نقطة البداية . وكل ما حولي يشاركني ذلك بطريقة ما . الغيوم لا تمطر لكنها توشك أن تفعل . الشمس لا تشرق لكنها قد تفعل . الريح لا تعصف لكنه النسيم يبشر بها . السلم لا يصعد درجاته . كل ما حولي في حالة وقوف على الصفر ، وقوف ما قبل المخاض والولادة .. كل ما حولي كصبيحة ليلة الخلق ، وعرس الأرض في الكون ..

وأنا ما زلت أقف مسمرة على الدرجة الأولى لسلم الفندق الحجري ..

يسألني شاب وهو يمد يده ليحمل حقيبتي عني : هل أنت بخير ؟ شاهدناك تهبطين من المصفحة .

أسمع صوتي يرد : أنا بخير .

— هل أساعدك على صعود السلم .

— أنا بخير .

يمر بنا باص مليء بالركاب لاحدى شركات الطيران ، كأنه اقتراح جواب .

الرحيل ؟ لا .

لقد جربت الرحيل من قبل ، ولم يفدني .

هنا ، أو لا شيء . هنا البداية ، والنهاية .

هنا أول الخيط ، وهنا آخره ...

الرحيل ؟ لا .

لن أكرر الغلطة . لن أدور حول دائرة الصفر «0» والا عدت مهدودة الى حيث انطلقت ...

هنا ... أو لا شيء ...

الفعل لا الهرب والانتظار ..

وشعرت بأنني في محطة للرحيل لا أمام فندق ...

Akhawia.net

وقررت الهرب منه ..

لم تكن لدي أية فكرة عما اذا كانت تاكسيات بيروت ما تزال تعمل أم لا ..

(كنت قد اعتدت على المصفحة لتنقلاتي في الآونة الأخيرة) .. ولكن الى أين أذهب ؟ ومن أين أبدأ ؟ ...

وظللت حيث أنا . مسمرة . وبحاجة الى أن أكون وحيدة . في أعلى السلم أراهم ، ينتظرون حكاية تسليهم قليلاً ريثما تقلهم طائراتهم الى مهجر اختاروه .

لكنني بحاجة الى أن أخلو بنفسي .

في نقطة الصفر ، الزحام لا يجدي .

على الرصيف الآخر ، فندق البحر ...

يمتد الى ما لا نهاية ، لا سلالم فوق سطحه ولا زحام .. (فرحت لأن الناس لا يستطيعون المشي فوق الماء والا لوسخوه بسهراتهم وتجمعاتهم الفضولية) ...

يكرر الشاب : دعيني أسندك وأساعدك على الصعود . هل أنت واثقة من أنك بخـــير ؟

اذن فأنا أبدو من الخارج نازفة ومرهقة ومجروحة اليد والاذن ...

في الداخل أقف على نقطة الصفر ، حيث الأفق من جديد بلا حدود ، والاحتمالات كلها ممكنة ، والرغبات الحقيقية مطلقة السراح من جديد .

قلت له : شكراً . سأتمشى قليلاً باتجاه البحر ...

أصر على لعب دور (الفارس) . تمسك بحقيبتي وحاول جذبي نحو الفندق .

قلت : اسمع . لست ذاهبة لأنتحر في البحر . لدي موعد هناك .

لم أكن أكذب .

على الرصيف الآخر وجدت نفسي في انتظاري . قفزت عن الحاجز الحديدي الذي يسوّر (الكورنيش) وبدأت أسير في الأرض الوعرة التي تقود الى البحر ...

أسير بحرية للمرة الأولى منذ دهور .. وكما تحصي أم أطفالها العائدين من الغابة ، أحصي أعضائي التي استطاعت أن تنجو من مطر الرصاص ، — حتى الآن — وأشعر بأن كلاً منها يرحب بلقاء الآخر ..

على الصخرة نفسها ، حيث كنت أجلس أنا ويوسف ، أجلس .. زجاجات الكولا

Akhawia.net

ما تزال هناك ، فارغة ومغبرة ... الأشياء الفارغة تظل على حالها ..

لا تمتلىء ولا تتحطم ...

أتمدد فوق الصخرة ، وأحسها قارباً حجرياً يمخر بي عباب البحر ..

ينزلق شريط مشحون بالأصوات والوجوه أمام عيني .. أتذكر وأنسى .. أتذكر وأنسى .. ذاكرتي لا تتنكر لشيء ، اللواتي والذين أحببت ، وأفراحي وخيباتي ...

أتذكر وأنسى ...

أتذكر وأنسى .. ففي قاع ذلك كله ، هنالك « أنا » .. شاسعة أحتوي الحزن والفرح ، السقوط والوقوف من جديد .. أتذكر وأنسى .. أسكب عمري في غربال الزمن ، وأترك ثقوب الحقيقة تفصل قمحه عن شعيره ...

أتذكر وأنسى ...

وأحدق جيداً ..

أتذكر كل ما احترق ، كل ذلك العمر الذي خلفته خلفي ، كل تلك الأصوات التي احترقت ، والصور والأوراق والرسائل والكتب ... كل ذلك هضمته وتمثلته . وكان علي أن ألفظه منذ زمن بعيد .. كل ذلك صار خارج نفسي ...

أفتح الحقيبة البرتقالية ...

أسكب محتوياتها على الصخرة ...

ترتمي الى جانبي جثة يوسف الممزقة ...

والمسدس ...

وأوراقي داخل المظروف الأصفر ، وعلى غلافه عبارة : « مخطوطة كوابيس بيروت » ..

أتابع ابحاري في مركبي الحجري على خط طول صفر وعلى خط عرض صفر ، وبوصلتي لا تشير الى الجهات الأربع ، بل الى الجهة الخامسة : جهة العمق ...

أرمي بجثة يوسف الى البحر ، وأتأمل الموج كيف يطبق على أوراقنا وصورنا وموسيقانا ...

ثم أضع المسدس ، وأوراقي جنباً الى جنب ..

أحدق قليلاً .

Akhawia.net

على الطرف الآخر من صخرتنا – مركبنا الحجري – يجلس يوسف ... يحرك شفتيه كأنه يناديني ..

دونما تردد ، أمسك بالمسدس وأطلق الرصاص عليه ...

أرى الرصاصة تخترق جسد يوسف الشفاف ، ويتحول بسرعة خرافية الى تل هزيل من الرماد تنثره الرياح ، وخيط من الدخان سرعان ما يتلاشى .

انتهت مهزلة السقوط في غرام جثة ، والتلهي بها عن آلاف من جثث الأبرياء يزرعون تربة هذا الوطن بها ...

لا أرمي بالمسدس الى البحر... (لا مفر من الرصاصة حين لا يتركون أمامك أي حل آخر) .. أوسّده صدر أوراقي وأتركها تحيط به كما يحيط الرحم بالطفل ، وأحكم اغلاق مظروف (مشروع رواية كوابيس بيروت) . أعيدها الى الحقيبة والمسدس يتوسطها .

الشمس تشرق قليلاً عبر الغيوم . غيمة واحدة تمطر . انها تمطر والشمس مشرقة .. وشعاعها النفاذ يمتد كدرب مضيئة ..

وأشعر أنني أضع قدمي على أول هذه الدرب ..

* * *

أستسلم للشمس والمطر .. ألصق وجهي بالتراب والحصى والأشواك لأستريح قليلاً قبل أن أمضي من جديد ..

ما يزال درب الضوء يزداد كثافة ووضوحاً ... أغمض عيني فأراه بمزيد من الوضوح ...

* * *

حلم ١

ارتدت الجدة أسنانها الاصطناعية ، وجلست الى سرير حفيدها تروي له الحكايات قبل أن ينام ..

لاحظت الجيتار الذي يحرص على ابقائه قريباً من فراشه . لكنها لم تلحظ الرشاش الممدد الى جانبه تحت الغطاء كصديق حميم .

لم تلحظ نظرة الرجولة المبكرة المطلة من عينيه .

Akhawia.net

كانت ما تزال تعتقد أنه مجرد صبي صغير ، ولا تذكر بالضبط ما اذا كان في التاسعة أو الثالثة عشرة من عمره ... أو السابعة عشرة من العمر ..

قالت الجدة : كان يا ما كان في قديم الزمان لحتّى كان .. كان للملك الزمان بنت حلوة عيونها ذهب وشعرها ذهب وأسنانها ذهب ولها أيضاً جنية من ذهب تحرسها وتسهر على مستقبلها ، و ... و ... ثم ... وطبعاً .... وتزوجت الأميرة من ابن الملك الجار وكان بالطبع أميراً من ذهب شعره وعيناه وأسنانه من ذهب .. وعاشا في ثبات ونبات .. وخلفوا البنين والبنات .. وتوتة توتة خلصت الحدوتة ..

لكن الحفيد لم ينم ، اتسعت عيناه .

قالت الجدة : هل أروي لك حكاية ثانية ؟

لم يجب .

وروت له حكاية ثانية عن ابنة الملك الثانية وابن الملك الثاني وكيف تزوجا في حفل مهيب أكلا فيه الماس بدلاً من الخبز . لكن الحفيد لم ينم . ازدادت عيناه اتساعاً .

قالت الجدة : هل أروي لك حكاية رابعة ؟

لم يجب .

وروت له حكاية رابعة عن ابنة الملك الرابعة .

لكن الحفيد لم ينم . ازدادت عيناه اتساعاً .

سألته وهي تتثاءب : هل أروي لك حكاية خامسة عن ابنة الملك الخامسة كي تنـــام ؟

قال لها : بل سأروي لك أنا حكاية كي ستيقظي !

* * *

قال الحفيد وهو يروي لجدته حكاية كي تستيقظ : كان يا ما كان في حـــاضر الزمان ..

كانت هنالك امرأة ينادونها لولو ... ذهبت الى الملك سليمان تسأله عن هوية والدها الحقيقي . قال لها : والدك بحار أميركي من الأسطول السادس مر ببيروت . قالت له : غير معقول ، أمي قالت شيئاً آخر .

فجمع الملك سليمان مجلس السحر عند البحر ، فضربوا في رمل الشاطىء .

Akhawia.net

وقال ساحر مقاطعة الشمال : والدها محارب من آخر كتيبة في الجيش الصليبي ، بقي في هذا الشاطىء لأنه ظن أن الحرب الصليبية لم تنته بعد ، وكان يقاتل حيناً ، ويختبيء في الجبال حيناً آخر ...

ووافقه السحرة على ذلك . وانتهى المؤتمر ، وعاد كل ساحر الى بلده .

وذهبت لولو من جديد الى أمها وكانت أعرابية عمرها أكثر من ألف عام ولها ٢١ ولداً ما عدا لولو .

سألت أمها : من هو أبي ؟

قالت لها أمها : يوم تصيرين أماً ستفهمين ! .

– هل هو بحار أميركي من الأسطول السادس .

– لا . ليس بحاراً أميركياً .

– هل هو صاحب كازينو للقمار ؟

– لا .. ليس بصاحب كازينو للقمار .

– هل هو شاعر أو مجنون ؟

– لا .. ليس بشاعر ولا مجنون .

– هل أولادك « الـ ٢١ » هم أخوتي ؟ هل نحن من أب واحد ؟ ..

– نعم أنت وبقية أولادي من أب واحد .. ولكنكم مشتتون ! ..

والتقت لولو بشاب « غريب » أهملته أسرته منذ طفولته فنما في الغابات وتألم طويلاً وعلمته الطبيعة كيف يدافع عن نفسه بجسده الشاب القوي ...

أحبته لولو ، وكان فقيراً مثلها ، مشرداً مثلها ، لكنه لم يكن حائراً مثلها . كان يعرف جيداً أسماء آبائه وأجداده ، وفرحت حين أكد لها أنها من قبيلته الكبيرة المتفرقة البالغة ٢٢ بطناً ، وانه لا يحب أن يناديها باسم الدلع لولو ، وانما يفضل عليه اسمها الحقيقي الكامل .

وفي نيسان حملت لولو ...

شهقت الجدة وكانت تنصت بغضب وذهول الى حكاية حفيدها – وصرخت : حملت لولو بدون زواج شرعي ؟

تابع الحفيد : وغضب الملك سليمان لأن لولو تعهدت يوم عقد القران مع الغريب

Akhawia.net

في احدى العواصم العربية بعدم الانجاب ...

وقرر الملك اجهاض لولو وقتل زوجها ، وأقره على رأيه وزير الميمنة ومجلس السحر في المملكة ... كي يستقر الحال .. أما وزير (الميسرة) فكان له رأي آخر فتقرر اغتياله وأكل لحمه وشرب دمه .

وأعلنت لولو العصيان على الملك سليمان في شهر نيسان (أبريل) ١٩٧٥ ... واعتصمت لولو بجنينها ، وصارت وزوجها يقاتلان رجال الملك الذين حاولوا عبثـاً اختطافها وغسل دماغها ورحمها .. ووقف الى جانبهما الأطفال والبسطاء والشعراء الجوالون في المملكة .. كانت ظروف حياتها وسط الرصاص والقنابل والكلاب البوليسية التي تتعقبها قاسية ..

وقد أصيبت أكثر من مرة ... وبترت يدها اليمنى واحترق شعرها الجميل ... لكن الطفل كان يكبر في أحشائها ولم يكن طفلاً عادياً ..

فقد كانت حركاته في بطنها تشبه حركات قذيفة من نار .. لم يكن يسبح في كيسه المائي كبقية الأطفال ، وانما كان يركض كعداء يسابق أعداء مجهولين ... كأنه هارب من أولئك المتحالفين لاجهاضه ... وكانت تحس بأن له ساقي رجل ناضج يعرف طريقه .

وفي الشهر التاسع ، شهر كانون الثاني (يناير) لم تضع لولو طفلها .. وخافت خوفاً عظيمـاً ..

الا أن زوجها طمأنها : طفلك ليس عادياً ... وحملك له قد يستمر تسعة شهور أو تسعة أعوام ... المهم ألا يجهض ... وهو لن يولد مرة ، بل سيولد أكثر من مرة في أكثر من مكان واحد .. وسيولد بالذات حيث لا يتوقعون مولده ...

كانت الجدة قد غرقت في نوم عميق ،

وختم الصبي الحكاية : توته توته لم تنته الحدوتة بعد .. ولن تنتهي قبل زمن طويل طويل ...

وترك جدته غارقة في شخيرها ، وحمل رشاشه وجيتاره ، وانطلق في الليل كي يساهم في شروق الشمس .

«تمت » ؟

Akhawia.net

مشاريع كوابيس
وملاحظات لاضافتها او الاستفادة منها
وقت كتابة الرواية

ملاحظة — ١ — عن (المثقفين) — بالضبط طبقة (مثقفي المقاهي) المتفشية في بيروت خاصة والعواصم العربية الأخرى عامة .

التقيت بفئة منهم . كانوا يستعدون للهرب الى أوربا ، ويقومون بجولة (وداعية) لبيروتهم ! ..

بدوا لي وهم ما زالوا يتفلسفون أمام مشهد المساكين الواقفين في صف طويل أمام بئر ينتظرون دورهم لملء الماء ، و (يتفرجون) على دنيا الناس — الأقل مرتبة منهم — وفي عيونهم كثير من الاغتراب والتسلية في آن معاً ، تعبير شبيه بالذي نراه في وجوه زوار حدائق الحيوانات ووقفتهم أمام أقفاص الكائنات الحيوانية المسلية . كان في وجوههم ‑عور نازي بالتفوق والتمييز .

أراهم في كابوس على الشكل التالي :

مقهى رصيف « كالدولشي فيتا » بالروشة مثلاً حيث يمارسون صيد السمك الوهمي ، حاملين قصبات الصيد وصناراتهم متدلية في الفراغ على الرصيف لا في البحر .. هنالك مقاعد مريحة وذات مساند مصفوفة على طول الافريز الحجري الواطىء الدي يفصل رصيف المقهى عن رصيف الشارع . الضوء رمادي شاحب وليس واضحاً فيما اذا كان الوقت فجراً أم غروباً . في المقاعد المصفوفة كما في دور السينما تماماً (وقد نزعت من المقهى الطاولات) يجلس المثقفون والمثقفات ويمسكون بأيديهم قصبات صيد السمك الطويلة جداً والطعم في كل صنارة حرف من حروف الأبجدية .

الجميع يضعون على عيونهم حجباً سوداء كتلك التي توضع للأحصنة وبقية البهائم حين تربط الى محور تدور حوله باستمرار (حول البئر مثلاً) ، وتستمر في الدوران حتى ولو كانت البئر فارغة من الماء .

الرجال (المثقفون) يضعون باروكات شعر طويلة على رؤوسهم مثل التي يضعها القضاة الانكليز ، أما النساء فحواجبهن محلوقة تماماً وقد رسمن في موضعها خطاً رفيعاً

Akhawia.net

بالحبر الصيني . شعور رؤوسهن حليقة تماماً ويرتدين قبعات الممرضات البيض والمنشاة .

الطقس حار والكل يرتدون معاطف الفراء . (المثقفات) يدخن الغليون . الرجال يمضغون الشيكلس .

الجميع ، من مثقفين ومثقفات ، يحملون في أيديهم اليمنى صنارات صيد – كما ذكرت – فهم جالسون في المقهى للصيد . البحر بعيد ، وصناراتهم لا تصل الى مدى أبعد من الرصيف الملاصق لهم لكنهم يتوهمون أن صناراتهم مغموسة في البحر . الناس يتجنبون رصيفهم . من آن الى آخر يتحدث مثقف عن السمكة التي اصطادها أو الحوت أو القرش أو حصان الماء أو نجمة البحر أو الصدفة المليئة باللؤلؤ أو السردين أو المرجان واصفاً صيده بأبيات من الشعر الموزونة والمقفاة بالعربية مثلاً أو بألفاظ فرنسية أو انكليزية شديدة الحذلقة .

كتابة الكابوس بلهجة محايدة .

* * *

ملاحظة – ٢ – مناخ الثورة يفسد « فرصة التنفس » و « أعمال » طبقة (سيدات المجتمع) العاطلات بالوراثة و « نجماته » المستجدات ، المرتزقات من السهرات والمناسبات الاجتماعية التي تعقد خلالها الصفقات حيث يمتزج العهر المالي والاحتكاري مع العهر الجنسي في بوتقة مناخ فاسد انسانياً ... هذه الطبقة تفسد الثورة مصالحها ومزاجها خصوصاً المرتزقات بصورهن في (صفحات المجتمع) ببعض المجلات ، تلك الصور التي هي في جوهرها اعلانات مجانية عن عاهرات لا ميزة لهن سوى أن « قواديهن » هم من بعض حكام هذا الوطن البائس . كابوس يرسم هذا المناخ من خلال صقيع علاقة زوجية لاثنين من هذه الطبقة . زوجان لم يألفا الحياة (معاً) كانسانين ، وانما ألفا لعب دور اجتماعي متناسق ومن هنا كان زواجهما – المدعوم (بالأصدقاء) والصفقات – ناجحاً .

الحرب الأهلية تضعهما وحيدين وجهاً لوجه كل منهما مع الآخر ومع نفسه وهي مواجهة تحدث للمرة الأولى . فأكثر (الأصدقاء) رحل أو قتل أو انعزل في قصره مع مخاوفه وحيداً مثلهم أو استأجر بعض المرتزقة لحمايته .

لم يعد تبادل الزوجات ممكناً ولا تبادل الأزواج . والأثرياء العرب لم يعودوا يشرفون

Akhawia.net

البلد بزياراتهم وسهراتهم وهداياهم والعشيقات الأجنبيات اللواتي كن يرفهن عن الأزواج الضجرين ويتحركن في مسبح « السان جورج » وقد خلعن القطعة العليا من (المايوه) — راميات في مستنقع حياة أولئك الرجال حجر إثارة — ، كلهن قد رحلن .

الكابوس : يصور زوجين في قصر كبير مبني بأكمله من ألواح الثلج .

القصر فارغ من الأثاث تماماً ومن الأطفال والصمت المخيم لا تقطعه سوى طلقات الرصاص .

الزوجة جالسة على مقعد هزاز في غرفة . الزوج في غرفة أخرى على مقعد مشابه .

لا أثاث في القصر بأكمله سوى المقعدين الهزازين وجهازي هاتف أحدهما على البلاط العاري أمام الزوجة والآخر أمام الزوج ... الهاتف بلا أشرطة ولا تمديدات .

كل من الزوج والزوجة ممسك بالهاتف ويتحدث محاولاً الاتصال بالآخر ، ومحاولاً الاتصال بالعالم الخارجي .

كل منهما لا يسمع غير صوته . الزوجة تترك سماعة الهاتف — من آن الى آخر لتتحسس شعرها الملفوف حول الأسطوانات الحديدية الخاصة بذلك . كلاهما عار تماماً ، وهي قد ألصقت علي صدرها (المترهل بدون حمالات) قطعة قماش عليها اسم « بيير كاردان » (Tag) منتزعة من فستان ما ، والرجل تتدلى من عنقه قطعة مشابهة عليها اسم « تيد لابيدوس » منتزعة عن بيجامة لها هذه الماركة ، وقد اكتفى بالصاق (الماركة) دون ارتداء الباقي .

تحاول هي الاتصال بعشاقها وتفشل .

يحاول هو الاتصال بعشيقاته وزوجات أصدقائه ويفشل . يحاول كل منهما الاتصال بالآخر في الغرفة المجاورة ويفشل . يتعالى صوت الرصاص ثم تكسر ألواح الثلج ويدخل مئات الأطفال وهم يجرون مكنسة كهربائية عملاقة ويسارعون بها نحو الزوجة (فتشفطها المكنسة) ، و (تشفط) الزوج أيضاً والهاتفين الميتين والكرسيين العتيقين وتحملهما الأرجواني العتيق .

* * *

ملاحظة ٣ — الحب هو العمل معاً والكفاح معاً وتوافق الكهارب وتناغم النظرة الى الوجود . أي زواج مبني على حب (آخر) ينهار على محك الحرب الأهلية .

Akhawia.net

كابوس عن ارتفاع نسبة الطلاق لا (ضجراً) كما يتوهم البعض ولكن لأن الحرب الأهلية تعري العلاقات .

الكابوس : العروس تدخل الى البيت الجديد محاطة بأمها وعمتها وخالتها وبقية عجائز الأسرة ، ولهن جميعاً أجساد بدينة ورؤوس غربان .

يكشف العريس ستارة . تبدو خلفها سيارة فخمة . تشهق الغربان . يقول بلهجة مسرحية كمن يقدم راقصة لجمهور كاباريه من الدرجة الخامسة .. السيارة ...

وتصفق غربان الأسرة بمناقيرها ، وتتعالى (زلاغيط) أم العروس وخالتها وعمتها .

يكشف ستارة أخرى بالحركة المسرحية ذاتها . يبدو خلفها براد فخم . يقول بصوت مذيع في السيرك : البراد .

يتعالى التصفيق ممتزجاً (بالزلاغيط) .

ستارة أخرى : المكنسة الكهربائية . تصفيق حاد بالمناقير .

ستارة أخرى : العصارة الكهربائية ماركة مولينكس . تصفيق شديد .

ستارة أخرى : غرفة طعام لوي كاتورز . تصفيق .

يكشف ستارة أخرى . تبدو فتاتان كل منهما داخل علبة شفافة كالتي تهدى بها الزهور ومربوطة بشريط وردي كبير . يقدمهما العريس : خادمتان واحدة للمطبخ وأخرى لبقية أشغال البيت . تصفيق شديد وهتاف بحياة العريس .

ستارة أخرى تكشف عن ملاءات للسرير من الحرير المطرز .

تصفيق وهتاف : يعيش العريس . يحيا الزواج .

العريس يحمل العروس ويمددها على السرير . يكشف ثيابها حتى الخصر . يفك أزرار بنطلونه السموكن ، ووسط تصفيق الغربان يمتلكها فوراً دون أن يخلع أحدهما ثيابه أو ينظر أحدهما الى الآخر . تصفيق حاد ...

تخرج غربان الأسرة حاملات معهن خرقة غير ملطخة بدم أحمر بما فيه الكفاية ، ويتم بسرعة استبدالها بخرقة مدهونة (بالميركركروم) بالدواء الأحمر كانت معدة سلفاً لهذه الغاية ، وترفع كعلم ويخرجن بها في مظاهرة نسائية تحمل اليافطات التي تنادي بسقوط حقوق المرأة والرجل معاً .

Akhawia.net

المشهد الثاني من الكابوس نفسه : البيت ذاته . العريس والعروس ما زالا في ثياب العرس وقد ضم كل منهما الآخر في خوف .

تأتي القذيفة الأولى : تطيح بالسيارة . تتراخى يد العروس الممسكة بالعريس ، وكذلك يده .

القذيفة الثانية تطيح بالبراد . العروس والعريس ، يفلت كل منهما الآخر .

القذيفة الثالثة تطيح بالمكنسة . العروس تبتعد وتغطي ساقيها تماماً بالثوب الذي كان ما يزال يكشف عنهما .

القذيفة الرابعة تطيح بالتلفزيون .

العريس يعيد إحكام أزرار بنطلونه التي كانت ما تزال سائبة . قذيفة تطيح بفضية كريستوفل وأواني الكريستال . العروس تقف وقد أدارت ظهرها للعريس وهو أيضاً ، قذيفة تطيح بغرفة الطعام . كل منهما يمشي بعيداً عن الآخر وباتجاه معاكس . قذيفة تطيح بغرفة النوم ، وكل منهما خرج الى شارع مختلف وافترقا دونما وداع ودون أن يلتفت أحدهما الى الوراء نحو الآخر .

عند المنعطف يلتقيان صدفة . ينظر كل منهما الى الآخر نظرة عابرة دون أن يعرفه أو يتذكره .

* * *

ملاحظة ٤ — حرائق بيروت تلتهم المقاهي والمطاعم القديمة كلها ، وتلتهم الذكريات معها بوحشية لا متناهية . هكذا يبدو الأمر بالنسبة (لأصحاب الذكريات) .

كابوس : الأم تقرأ في احدى الصحف عن احتراق مطعم (السويس ريفيوج) . هناك كانت تلتقي بعشيقها الضابط الفرنسي الوسيم أيام الانتداب . تتذكر النبيذ والموسيقى وفستانها المخمل الأسود والوردة الحمراء الاصطناعية على ياقته ، وشبابها وملمس شفتي حبيبها في ظلال الشموع وتبكي وتشتم المتوحشين الذين يحرقون (بيروت الذكريات) . ابنها لا يقول شيئاً . لا يقول لأمه انه هو الذي وضع العبوة الناسفة في المطعم بعد أن استطاع القناص المحتمي في سطحه قتل اثنين من رفاقه الثوار . انه لا يقول لأمه انه بحاجة الى بناء بيروت ليست كباريهات للوطن العربي ولا بيت دعارة للزبائن القادمين من المحيط الى الخليج ولا مدينة لذكريات العجائز والمتصابيين المصرين

Akhawia.net

على تعاطي المقويات الجنسية التي تملأ الصحف الاعلانات عنها . ويترك أمه تبكي وتنبش في صناديقها بحثاً عن فستان المخمل الأسود والوردة الحمراء الاصطناعية ويحمل رشاشه ويخرج من البيت .

تجد هي الفستان . الوردة صارت صفراء داكنة بلون الصدأ . الفستان صار وكراً لديدان العتق . تحمله وتنفضه فتخرج منه سحابة من العث والحشرات وتحيط السحابة برأسها مثل عش نحل مسعور وتبدأ بأكلها بشهية وبعد دقائق لا يبقى من رأسها سوى الجمجمة . حين يعود ابنها مساء تفتح له الباب برأسها الجمجمة ، والحشرات تفور من ثقوب عينيها وأنفها وأذنيها . لا يلحظ هو أن شيئاً قد تبدل في أمه . لقد كان دوماً يراها هكذا . يرمي برشاشه على السرير وينام فوقه بثيابه دون أن يأكل .

الأم تتابع بكاءها بقية الليل حزناً على حريق مطعم الـ (سويس ريفيوج) !

* * *

ملاحظة ٥ — الحرب الأهلية تمزق العلاقات البشرية التي لا جذور حقيقية لها .

الرجال يتخلون عن عشيقاتهم — ليلاً على الأقل — ويلازمون بيوتهم وزوجاتهم وأطفالهم ويفضلون الانفاق على بيت الزوجية بدلاً من الانفاق على (الجرسونييرة) .

كابوس عن زوجة تشعر بأن الحرب الأهلية قد أعادت اليها زوجها .. صار يلازم البيت ولا يغادره بعد أن كانت لا تراه الا صدفة . الجنون ، جنون القصف ، والهاتف المعطل قطع عنه حتى فرصة الحوار مع عشيقاته .. انها تنظر بهلع الى انتهاء الحرب الأهلية ، وستخسر الرجل الذي تحب حتى الجنون ...

ذات ليلة ، تسمع في الراديو خبر هدنة ووقوف اطلاق نار ، وان الأمور ستعود كما كانت والحرب ستتوقف . تخفي النبأ عن زوجها . تدعي أن بطاريات الراديو قد نفدت كي لا يسمع الأخبار . ترسل بأولادها الى بيت أمها المجاور لينامو عندها . تجره الى الفراش كي لا يتحدث والجيران . يغفو وتظل هي مستيقظة وخائفة تفكر بمرارة وخوف ... لا . لن تفقده ثانية . لن تتركه يعود الى عشيقاته . تأخذ مسدسه وتطلق على رأسه طلقة واحدة .

لا أحد يهتم بصوت الطلقة لأنه من روتينيات ليالي بيروت .

تضم اليها جسده الذي ما زال حاراً وتنام . عند الفجر يندلع القتال ثانية . يندلع

Akhawia.net

بشدة لا حد لها وتشعر بندم مرير . ليتها لم تتسرع . ليتها تيقنت من توقف القتال نهائياً قبل قتله . القتال يشتد ويتعذر عليها حتى مغادرة باب دارها . جثته تتعفن . تهترىء أمام عينيها . تفوح رائحتها ويخرج منها الدود ولكنها تظل تضمها الى صدرها حين تنام ليلاً .. تنام ولا تنام ، وتبكي وتضحك في آن معاً ...

حين تهدأ الجولة بعد أسبوع وتأتي أمها لتفقدها يجدونها وقد ماتت جوعاً وعطشاً بينما قتل زوجها برصاصة (طائشة) في رأسه .

* * *

ملاحظة ٦ – عن المعركة التي دارت في مطعم « ميرتوم هاوس » بالقنطاري وكيف روتها لي أطراف مختلفة لها علاقة بها ، وكل شخص يرويها لي كما لو كانت حكاية مختلفة .

ايرين التي تقطن منزلاً ملاصقاً للمطعم روتها لي . ثم رواها شاب من المرابطين الذين اشتركوا بالمعركة . ثم رواها لي خليل نقلاً عن هيلين ، الجارة الأخرى للمطعم .. وكانت الروايات كلها مختلفة ومتباينة ..

ذلك لا يعني بالضرورة أن أحداً كان يكذب . فأداة الانسان لمعرفة الحقيقة قاصرة جداً تعتمد على حواس خمس وتنقل هذه المعرفة عادة بواسطة أداة أخرى قاصرة جداً جداً هي اللغة .. والنتيجة الاستماع الى عدة روايات مختلفة عن حادثة واحدة دون أن يكون هنالك من تعمد الكذب .

الكابوس – أنا معصوبة العينين . جني الحقيقة يقول لي : احزري أين أنت مسجونة لنطلق سراحك .

تهاجمني الأمواج فأصرخ : أنا مرمية في البحر .
يقول : لا . ليس تماماً .
ألمس جداراً صلداً أملس فأصرخ : أنا في قاع بئر .
يقول : ليس تماماً .
أتحسس الجدار فأجد صخوراً شاهقة وبلا نهاية .
أقول : أنا على شاطىء نهر طويل .
يضحك : ليس تماماً .

Akhawia.net

يرفعون العصابة عن عيني . أجد أنني في قاع زجاجة نبيذ ! ... لا بحر . لا نهر . لا صخور شاهقة . مجرد دائرة أسبح حولها دون أن أدري .

كابوس – أنا واحدة من قافلة العميان : يطلقوننا حول فيل ويقولون لنا آن من يعرف ماذا يلمس تعود اليه نعمة البصر .

أمسك أذن الفيل وأقسم أن الجسم المطلوب معرفته هو مروحة .

ثم أمسك بذنب الفيل وأقسم أنه سوط لا مروحة .

ثم أتحسس جسد الفيل وأقسم أنه جدار . مجرد جدار لا أكثر .

ثم أمسك خرطوم الفيل وأقسم انه (نربيش) مطافىء .

ثم يضحك جني الحقيقة ويقول لي انه فيل ! ... ويتركني عمياء ... فالحقيقة متعددة الوجوه.المهم أن نتقبل ذلك الواقع ،لا أن نصر على أنها أحادية فقط لاغير ! ... ويتركني عمياء .

* * *

ملاحظة ٧ – (مثقفة) . زوجها يعمل في بلد عربي شقيق ويحول اليها النقود كل شهر بصفتها (مربية) لأطفالهما .

علاقتها بالأطفال والخادمة شبه متلاشية . تقضي أوقاتها في شرب الكحول والجلوس في مقاهي الرصيف وهي تتحدث،عن الأدب العربي وتنتقد الكتاب جميعاً ، وفي التمدد في غرف نوم أصحاب الأسماء اللامعة من شعراء ، وصحفيين .

الزواج بالنسبة إليها هو تحويل يصلها أول كل شهر الى البنك ، وهي تتحدث باستمرار عن تحرر المرأة وتمارس استعباد الرجل .

فكرة الكابوس : تذهب أول الشهر الى البنك لقبض التحويل . شربت كثيراً من الكحول في الشهر السابق وأنفقت الكثير على شراء (الحشيش) وهي بحاجة ماسة الى التحويل .

تصل الى البنك . تجده مغلقاً بسبب الأحداث والقنابل . هكذا يقول لها البواب الذي لا يسمح لها بالدخول . كعادتها ، تمارس أسلوبها الوحيد للعيش . تضاجع البواب على العتبة فيسمح لها بمقابلة البواب الثاني تضاجع البواب الثاني فيسمح لها بمقابلة مدير البنك .

Akhawia.net

تضاجع مدير البنك بعد أن يعدها باعطائها التحويل الذي وصلهم باسمها . وبعد أن تنهض عن الأريكة وبيدهـا علبة (الكلينكس) يناولها مدير البنك التحويل الذي ورد باسمها . تفاجأ بأنه صندوق كبير . أهو يا ترى مليء بالذهب ؟ تفتحه .. تجد بداخله جثة زوجها الذي قتل في طريق المطار أثناء محاولة العودة .

يقول لها مدير البنك : هذا آخر تحويل يبلغك بواسطتنا .

* * *

ملاحظة ٨ — كانت تماطل في أمر زواجها منه . كانت القضية بالنسبة اليهـا اجتماعية بالدرجة الأولى وهنالك بنود كثيرة عليه تحقيقها قبل أن يضم بين ذراعيه (لوح الثلج) الذي هو (الآنسة الوارثة) ..

الحرب الأهلية تدمر المجتمع المهترىء وتقاليده المترهلة التي تطبق على الـروح الانسانية كما كان يطبق الحذاء الحديدي على أقدام البنات الصينيات لمنعها من النمو .

مع الحرب الأهلية يصير المساء حجراً ثقيلاً عبئاً تدفعه عن صدرها ، وتصير ثروتها أمراً مشكوكاً به ، فأملاكها تقع بالصدفة في القسم الآخر من المدينة ، الذي يهيمن عليه أشخاص من دين آخر .. يرحل أكثر أفراد أسرتها أو يقتلون أو يموتون .

مشروع كابوس : يرافقها في السيارة لتعزية ابنة عمها بمقتل زوجه . تقبل أن يوصلها الى هناك بعد أن تعددت حوادث خطف الفتيات أو السيارات أو الفتيـات والسيارات معاً .

يجدون أنفسهم فجأة وسط زحام غير عادي من السيارات . اطلاق رصاص يصم الآذان . تتوقف السيارات . يهبط الجميع ويباشرون اطلاق الرصاص . يكفي أن ترتجف يد أحد أولئك الشبان لتصيبها رصاصة ما خطأ وينتهي كل شيء .

تشم رائحة الموت . تتفتح حواسها ... ترى رجلها . تراه للمرة الأولى كرجل لا كمجرد رمز اجتماعي . يستيقظ فيها شيء غامض نائم . حين ينجوان من الجنازة تمنحه جسدها بكل ما فيه من رغبة في الحياة والعطاء .

يحدثها عن الزواج . هذه المرة هي التي تتهرب . تجره للمرة الخامسة ذلك المساء الى الفراش . الورقة لا تهم . حين يكون الموت واقفاً بالانتظار خلف الباب ، تصير الورقة الاجتماعية بلا أي معنى ... مجرد ورقة خريف أخرى ..

Akhawia.net

ملاحظة ٩ — الفنان يصاب أحياناً بالبكم الفني المؤقت أمام فظاعة ما يدور ..

ملحن موهوب ، ينجو من مجزرة مروعة . لقد اقتادوه مع بقية ركاب التاكسي الى المقبرة وأطلقوا عليهم الرصاص هناك . ظن أنه مات . حين استيقظ اكتشف أنه كان قد أغمي عليه فقط وظنه (الأعداء) قد مات كالباقين . نهض من تحت كوم الجثث . كانت قد بردت فوقه وتصلبت . وكان عليه أن يشق طريقه وسط كوم من الأعضاء التي مزقها الدم والوجوه ذات العيون المفغورة ببرود ، الزجاجية النظرات في ضوء القمر الزجاجي الصقيع ...

من يومها وهو جالس الى البيانو يحاول عبثاً أن يصرخ عبر أصابعه ... دونما جدوى . والجيران يتضايقون من ضرباته العشوائية الصاخبة على البيانو رغم القصف .

ينتهز فرصة هدوء القصف . يخرج الى السوق . يبتاع علبة من المسامير .

يحاول للمرة الأخيرة أن يسكب أحاسيسه الغامضة داخل بناء السلم الموسيقي . يفشل . يشعر بأنه يسقط على درجات السلم الموسيقي . الدرجات من رخام أصم ورأسه يرتطم بها مصدراً صوتاً أجوف ...

يأتي بعلبة المسامير والمطرقة . يدق مسماراً في كل إصبع بيانو . يثبت أصابع البيانو كلها .

الجيران ينصتون تلك الليلة الى سيمفونية عجيبة .: سيمفونية المسامير والمطرقة وأصابع البيانو .

ينهار بعدها على الأرض ويبكي . فهو يعرف أنه أيضاً لا يتقن استعمال السلاح ، ويعجز عن استعماله حتى في حال الدفاع عن النفس . .

يظل يبكي حتى ينام ...

كابوس آخر واختيار أحدهما :

كاتب . طاولته شاسعة . كتب مئات الصفحات عن الحرب الأهلية لكنه غير راض عنها ... كتب كثيراً ومع كل صفحة يزداد حسه بالخيبة والمرارة . يمزق كثيراً من الورق ويكومه حول الطاولة ، والخادمة القذرة البدينة تأتي مرة في الأسبوع لتنظف المكان ...

ذلك النهار يشعر بأنه عنين فكرياً أمام ما يدور من أحداث ، وفي أعماقه تمترج

Akhawia.net

الخيبة والبؤس والمرارة والشعور بالعقم ... يهاجم الخادمة العجوز البدينة . يطرحها على الطاولة فوق أوراقه وكتاباته ... يغتصبها وهي مدهوشة لأن ذلك لم يحدث لهـا منذ ربع قرن على الأقل ...

بعد ذلك ، يستعمل أوراق مخطوطة روايته كأوراق (كلينكس) له ولها ! ...

* * *

ملاحظة ١٠ – عن الأبرياء والحمقى الكثر الذين تحصدهم الحرب الأهلية ...

كابوس : صياد يجوع فيضطر للخروج الى الصيد رغم مخاطر الدرب . تخرج شباكه مليئة فيفرح ، ثم يلحظ أن ما تحتويه ليس أسماكاً بل أطفال مقتولون .

يحملهم الى البيت وتطبخهم زوجته لأن أطفالهم الـ ١٢ يتضورون جوعاً ..

تحصد أطفاله قذيفة ، وهو لا يملك نفقات دفنهم فيرمي بهم الى البحر .

في اليوم التالي تخرج شباك صياد جائع مليئة بصيد وفير ، فيفرح ، ثم يكتشف أن ما تحويه شباكه ليس أسماكاً بل أطفال مقتولون ، لكنه يحملهم الى البيت لأن أطفاله الـ ١٢ في حالة جوع وتطبخهم زوجته ...

وهكذا ...

كابوس آخر يعبر عن الفكرة ذاتها وأفضله حتى الآن : امرأة ترتدي السواد تبكي طوال وقت وقوفها أمام الفرن بانتظار دورها لشراء الخبز . بعد ساعات يحين دورها – وحين يسألها الفران كم رغيفاً تريد لا تقول شيئاً وتمضي دون أن تشتري الخبز . وحين يوقفها مسلح ويسألها عن هويتها تبصق في وجهه وتتابع سيرها دون أن تقول كلمة واحدة .

* * *

ملاحظة ١١ – البؤس الذي عاشته الأكثرية الساحقة من الأطفال العرب ، جعلهم ينضجون قبل الأوان . وجعلت أكاذيب العالم القديم ورموزه وزيفه تنكشف لعيونهم .

فكرة كابوس : أطفال يقررون اختطاف بابا نويل . ذلك الظهر غادر بابا نويل مقر عمله في مخزن كبير لبيع الأحذية متعباً ..

أولئك الصغار الملاعين ... كم تبدلوا ... انه يلعب دور بابا نويل منذ ربع قرن تقريباً لكن الأطفال تبدلوا حقاً في السنوات العشر الأخيرة ... كانوا فيما مضى يرمقونه

Akhawia.net

باحترام ... ويلمسون لحيته الاصطناعية البيضاء مبهورين بها ... ويتحسسون قبعته بخشوع ... ويأخذون نصيبهم من الألعاب راضين مكتفين بهدية السماء اليهم ...

كانوا جميعاً يصدقون أنه قد وصل لتوه من السماء وبعضهم كان يسأل بخشوع عن صحة الرب وعن الطريق وعن النجوم والثلج والغيوم ... وليس بينهم من يخطر بباله ولو لثانية واحدة أنه لا يحضر كل صباح من السماء وانما يحضر من بيته الفقير البائس في حي برج البراجنة بضاحية بيروت ، وانه لا يأتي في عربة تجرها الملائكة وانما يأتي في سيارة تاكسي.(سرفيس) تكاد رائحة مازوتها تخنقه ... ويسارع الى الغرفة الخلفية بالدكان ، فينفض الصراصير عن ثوبه التنكري العتيق ويرتديه محاولاً اخفاء اهترائه ويلصق اللحية البيضاء التي تخفي قليلاً تعبير البؤس المرير الذي يزداد عمقاً عاماً بعد آخر حول شفتيه كأنه أخدود مزروع بالشوك ...

أما أطفال الأعوام الأخيرة فمن طينة أخرى ...

انهم يجذبون له لحيته ويسألونه ما اذا كانت من الشعر الطبيعي أم الاصطناعي . ويسألونه ساخرين عن المدخنة التي هبط منها ، وهل ساعدته الجرذان على تسلقها أم أنه فعل ذلك بنفسه ! .. أولئك الشياطين الصغار ... بل انهم صاروا في العام الأخير يصرون على الحصول على نوع واحد من اللعب : الأسلحة .

وصاحب الدكان لا يحب الأسلحة . والنتيجة أن الركلات تنهال على قدميه من أقدام الأطفال الملاعين .

حين خرج ذلك المساء فوجىء بعشرة من الأطفال يقتادونه بعد أن بلّغوه أنـــه مخطوف . كانوا يحملون المسدسات في أيديهم وخيل اليه انها حقيقية . خاف قليلاً ، بالضبط ، شعر بأنه يواجه خطراً غامضاً لا يعرف كنهه . يقتادونه الى جدار .

يتلو أحدهم قرار الحكم باعدامه رمياً بالرصاص .

يسأل : لماذا ؟

يقول الأول : لأنك قناع ونحن نكره الأقنعة .

يقول الثاني : لأنك صديق الأغنياء فقط .

يقول الثالث : لأن ألعابك مخدرة ومن نوع الكماليات .

يقول الرابع : هداياك مكرسة لترسيخ قيم عالم غير عادل .

Akhawia.net

يقول خامس : وتفعل ذلك تحت ستار ارادة الله ... فتساهم بذلك في تزييف حقيقة ارادته .

يقول سادس: لأنه لم تعد هنالك مدخنة تهبط منها ،إننا نختبىء من أعدائنا في المداخن.

يقول سابع : انهم يحرقون جثث آبائنا ومرورك يعترض طريق دخانهم ولا نريدك أن تدوس على رمادهم ...

ويصرخون جميعاً : ولأنك صديق الأغنياء فقط لا صديقنا نحن ...

فيصرخ فيهم : ولكنني فقير ... فقير.. اقتلوا صاحب الدكان لا أنا ...

ويقتنع الأطفال .

يتركونه مطلق السراح ، ودون أن يسألوه كالكبار ما اذا كان مسلماً أم مسيحياً .

يقررون الذهاب لاستجواب صاحب الدكان .

يطلب بابا نويل الانضمام اليهم فبينه وبين صاحب الدكان حساب عمره نصف قرن...

يرفض الأطفال أم يقبلون ؟

لا أدري . لم أعد أسمع أصواتهم الآن .

سأقرر ذلك وقت كتابة الرواية .

* * *

ملاحظة ١٢ — الأثرياء يحاولون شراء النجاة من غضب الشعب بالمال . بعضهم استطاع الهرب مع أمواله الى أوروبا حيث ينتظره جحيم من نوع خاص .

البعض قرر (الاحتيال) على البقاء أملاً في مزيد من الاثراء عن طريق الحرب الأهلية ، واستمراراً في منطلقاته العتيقة القائمة على التوهم بأنه بالامكان شراء أي شيء بالمال : حتى النجاة .

فكرة كابوس : ثري اقطاعي لا يقض مضجعه غير كابوس الخطف ، وما أكثر الراغبين باختطافه ومحاكمته في محكمة الليل والحقيقة وتنفيذ الحكم به في ساحة الثورة .

يقرر أن يكون له بديل (ككل الممثلين الكبار) . ومهمة هذا البديل ستكون تماماً كمهمة البديل في السينما . أي أنه سيقوم بتمثيل « الأدوار الخطرة » عنه . سيذهب عوضاً عنه الى اقطاعيته ، وسيلقي الخطب بالنيابة عنه ، وسيقوم بكل تلك الزيارات البغيضة الى بيوت الناس الذين ورث ولاءهم ورقابهم .

Akhawia.net

يسر الى زوجته بالفكرة . زوجته التي تكرهه ــ والتي كان زواجها منه مجرد صفقة انتخابية بين والدها ووالده ــ لا تعجبها الفكرة ، فقد كانت تطمح في أن تخلصهـــا الحرب الأهلية منه وتخلف لها ثروته أو بعضها . وهذه الفكرة قد تنقذه . سيأتي بشخص فقير يشبهه ، وان كان أصغر منه بعشرة أعوام . سيجري له عدة عمليات تجميل في وجهه ليبدو أكثر سناً ، وليصير نسخة عنه . وسيبدل هو ملامحه اتقاء للخطف ، وفي حالات الطوارىء يقتل بديله .

تنفذ العملية بنجاح .

البديل الفقير يحمل وجهه ، ويلعب دوره ، وقد تعرض حتى الآن لعدة محاولات اغتيال بينما كان هو راقداً في فراشه الوثير يضحك سعيداً باللعبة .

تتفق الزوجة والبديل .

يقتلانه ويشوهان جثته . يرميان بها تحت أحد الجسور فلا يميزها أحد .

يتابع البديل لعب دوره فلا يلحظ أحد أنه قد مات . كل ما يلحظونه هو أنه صار أكثر اهتماماً مما مضى بزوجته الحسناء وأنه يجمع ما يستطيع جمعه من النقود بالعملة الصعبة ويبيع أراضيه بأثمان بخسة ..

وذات صباح يفاجأون به وقد غادر المدينة مع (زوجته) دون أن يبلغا أحـــداً بعنوانهما أو الى أين ...

* * *

ملاحظة ١٣ ــ عن المحاولات التوفيقية السخيفة التي قام بها بعض البورجوازيين والتي كشفت سطحية نظرتهم الى ما يدور ومدلول ما يدور .. أبرز مظاهر هذه المحاولات التوفيقية والطوبائية المنطلقات هي المظاهرات التي كانت تخرج في شارع الحمراء حاملات لافتات الدفاع عن البروليتاريا باللغتين الانكليزية والفرنسية حتى دونما لافتة بالعربية .

كابوس : مظاهرة من هذا النوع . كل شخص يجر معه كلبه أو قطته المدللة ، أو يحمل قفصاً ذهبياً فيه فأره الأبيض أو عصفوره المغرد . النساء يرتدين أحذية عالية الكعوب جداً والرجال يرتدون بدلات السموكن .

كل من في المظاهرة يركض بجنون ، تقترب طفلة من احدى النساء وتسألها لماذا

Akhawia.net

تركض المظاهرة . تجيب المرأة ذات الشعر المصبوغ بلون أزرق : كي لا يفوتنا موعد شاي بعد الظهر .

* * *

ملاحظة ١٤ — اللامبالاة بما يدور هو جريمة . ليس هنالك محايد . لا أحد بريء في مجتمع ظالم ، فالسكوت بحد ذاته تشجيع على استمرار الظلم وهو بالتالي مشاركة لا مباشرة في ارتكاب الجرم . (المحايدون) يشجعون الظالم بسكوتهم — فهم لا ينطقون الا بعد أن تمس مصالحهم مباشرة — وهذا السكوت هو نوع من التواطؤ الضمني ومعاهدة (حسن جوار) بين الظالم والذي لم يُظلم بعد أو المظلوم أقل من سواه ، أو المظلوم الى حد لم يدفع به بعد للانفجار .

نواة الكابوس : أنطوان يسكن في بيت بمنطقة رأس بيروت تطل على ملعب للتنس .

كان سعيداً بذلك يقضي بعضاً من أوقاته يرقبُ سيقان لاعبات التنس الجميلات من خلف منظار مكبر اشتراه خصيصاً لذلك .

حين شبت الحرب الأهلية باع المنظار فقد فرغ الملعب تماماً من اللاعبين جميعاً واشترى بثمنه رشاشاً وتمرن جيداً على استعماله لكنه قرر أنه لن يستعمله الا في حالة واحدة هي : حالة الدفاع عن النفس . أي أنه لن يطلق النار أبداً إلا اذا اقتحم بيته مسلــح .

ولم يحنث بقسمه لنفسه . وحتى حينما (شاهدهم) يسرقون سيارته من أمام البيت في احدى الليالي لم يطلق رصاصة واحدة . تأملهم في الظلام وهم يعالجون أقفالها ويسرقون أمام عينيه ثمرة كدح خمسة أعوام ولكنه عض على شفته حتى سال الدم منها . انه لن يقتل دفاعاً عن أي شيء الا دفاعاً عن حياته ...

ذات يوم فوجيء ببعض الرجال في الثياب البيض (الشورت) الخاصة بلعب التنس وهم يطاردون الكرة بمضارب التنس .

اذن هنالك من استطاع أن يظل (حيادياً) . أن لا يبالي . أن يهتم بالمحافظة على (لياقته) .

تذكر المدفع الذي كان منصوباً في الملعب منذ أسابيع ... كانوا يقصفون منه الى

Akhawia.net

الناحية الأخرى .. وكان بيته بأكمله يرتجف خوفاً – كركبتيه – وانكسر بعض زجاج غرفه لعنف الضغط الذي كان القصف يولده .. ثم جاءت قذيفة عطلت المدفع والرجال معاً ، وكان بوسعه أن يسمع صرخاتهم المنبعثة من أجسادهم الممزقة ..

وجاء من لملم الجرحى والجثث والمدفع ... وها هم الآن يأتون من جديد للعب التنس فوق رمل الملعب الذي لا بد وأن الدم ما زال يصبغه ...

لا يدري لماذا . وجد نفسه يأتي برشاشه .. يضع صمامه على المكان الخاص باطلاق رصاصات منفردة (لا رشاً) ... يقف الى النافذة ويصوب جيداً ... يطلق الرصاصة الأولى فيسقط الأول . يركض الثاني . يطلق رصاصة ثانية فيخطئه . ثالثة ، فيسقط .

يشعر براحة عميقة .

لسبب مجهول يحس بأنه لم يحنث بقسمه .

بطريقة ما ، يحس بأنه قد قتل دفاعاً عن النفس .

* * *

ملاحظة ١٥ – امكانية كابوس آخر موضوع ملاحظة ١٤ نفسه .

الكابوس : أحدهم أراد أن يرفه عن (الأكثرية الصامتة !) وعن (الأبريـــاء العزل) وعن (المحايدين) ...

قرر افتتاح مدينة الملاهي واحضار سيرك للترفيه عن أهل بيروت الذين يعيشون منذ أشهر والكهرباء مقطوعة عنهم وكذلك الماء . يأتي بمولد كهربائي وينصب خيام السيرك معلناً افتتاحه .

يأتي بعض الناس . ليسوا (أكثرية) كما يتوهم البعض . تدور العجلات وتعلو الموسيقى وصرخات اللعب ويتراكض الناس وتومض اللمبات الملونة . بدأت جيوب قاطعي التذاكر تمتلىء بالنقود ..

وفجأة حدث شيء مفاجيء ..

الراكبون في الدولاب العملاق لمدينة الملاهي بدأوا بالصراخ ... لقد تكهربت مقاعد الدولاب بأكمله ، ثم صار يدور بسرعة جنونية والناس يتناثرون عنه في الفضاء ثم يهوون محطمي الرؤوس ومن لم يمت منهم مصعوقاً مات محطم الأعضاء ..

الحيوانات كسرت أقفاصها وهجمت على الناس تأكلهم .. حتى الحيوانـــات

Akhawia.net

الأليفة كالعصافير والبط والطواويس والأرانب استحالت مفترسة كالنمور وهجمت على الناس تفقأ عيونهم وتأكل لحمهم ..

الأشباح في (ممر الرعب) صاروا حقيقيين لا مجرد ظلال تلقيها آلات خاصة .

السيارات التي تركض في دروب وهمية الأخطار صارت تنقلب براكبيها والأخطار صارت حقيقية ...

أما أحدب السيرك المفروض أنه مكلف باضحاك الأطفال ، فقد انقض على صاحب الفكرة وظل (يدغدغ) صاحب السيرك بسكينه حتى مات من الضحك .. والنزف .

* * *

ملاحظة ١٦ — عن استخفاف عدد كبير من المسؤولين العرب بما يحدث لشعوبهم . المسؤولية لديهم وسيلة للثراء والسلطة لا لخدمة الناس . كل ما يعنيهم من أحداث لبنان هو ألا تؤثر على مصالحهم وأن لا تحدث (لهم) ، أما الذين يموتون من لبنانيين وفلسطينيين فمجرد أرقام . أما (العروبة) بالنسبة اليهم ، فهي موضوع (خطابي) جيد لابتزاز مزيد من صمت البسطاء ، ولتأليف الأناشيد الحماسية والبرامج التلفزيونية .

هذا النوع من المسؤولين تجدهم غالباً في كازينوهات أوربا الغربية والأجنحة الخاصة في أفخم فنادقها .

كابوس : ذلك الثري العربي الواسع النفوذ في احدى رحلاته (الاستجمامية) الى أوربا . يشتري له سماسرته أجمل الأوربيات ويأتون بهن الى جناحه الخاص في الفندق الكبير . يحب امتلاكهن واذلالهن في آن واحد ، لذا فانه يمارس (ذلك) بينما يرقب برنامجه التلفزيوني المفضل... ذلك المساء كانت الغانية أكثر مهارة مما يجب واستطاعت أن تنسيه شاشة التلفزيون ، وأخيراً حينما استوى جالساً في فراشه وأشعل لفافته فوجىء « بأكره » البرامج الى قلبه : الأخبار . وكانت الشاشة مليئة بالحرائق والخرائب والمذيع يتحدث عن مذابح بيروت ودمارها ... حدق في الشاشة قليلاً ثم تذكر أنه نسي الاتصال بأحد أصدقائه الحميمين الهامين . أدار قرص الهاتف وقال : مبروك يا شريك . الشحنة ممتازة ، وقد شاهدت الآن في التلفزيون مدى فعاليتها . ما رأيك بشحنة أخرى من الأسلحة ذاتها ؟ .

Akhawia.net

نواة كابوس : الثري نفسه يقامر في الكازينو . خسر الليلة كثيراً .. أكثر مما كان يتوقع . الى جانبه خارطة العالم العربي بشكل نموذج شبه حي ، فيه أشجار وبحار وأنهار ومئات الملايين من الناس .

يستل سكينه ويقسم قطعة من الأرض العربية ، ويضعها على طاولة المقامرة ويلعب بها . يخسر .

يستل سكينه ويقتطع قطعة أخرى من الأرض . يعطونه بدلاً عنها كوماً من (الفيشات) . يلعب . يخسر .

حين يمد يده ليقص لبنان ، تحترق أصابعه بالبركان الملتهب فيها وتندلع النار فيه . يقفز الى طاولة اللعب كتلة من النار ليقامر بنفسه لكنهم يرفضون اعطاءه (فيشاً) واحداً مقابل كومة الرماد التي تحول اليها والتي غطت طاولة الميسر الخضراء .

يأتي خادم حاملاً مكنسته . يكنسون رماده عن الطاولة ثم يسارعون الى الباب لاستقبال ثري عربي آخر نافذ له وجهه نفسه وجسده نفسه وتتكرر الحكاية من جديد .

Akhawia.net